معهد
الجزيرة للإعلام

في الميدان كما في غرفة الأخبار

تأملات في الصحافة كأداة أنثروبولوجية

مجموعة مؤلفين

في الميدان
كما في غرفة الأخبار

تأملات في الصحافة
كأداة أنثروبولوجية

في الميدان
كما في غرفة الأخبار

تأملات في الصحافة
كأداة أنثروبولوجية

مجموعة مؤلفين

في الميدان
كما في غرفة الأخبار

تأملات في الصحافة
كأداة أنثروبولوجية

مجموعة مؤلفين

تحرير
زينب ترحيني

مراجعة
محمد خمايسة
محمد زيدان

تدقيق لغوي
أحمد تحسين
إبراهيم منصور

تصميم
أحمد فتّاح

صورة الغلاف
محمود أبو سلامة – قطاع غزة, فلسطين المحتلة

جميع الحقوق محفوظة
معهد الجزيرة للإعلام 2025

جدول المحتويات

المساهمون في الكتاب 8

تقديم 12

الصحافة والأنثروبولوجيا: كيف يحصل اللقاء؟ 15

"قاع المدينة": كيف ننقل القصص بأصوات ناسها؟ 31

السيرة الغيرية: لماذا يتورّط كاتب في حياة شخص آخر؟ 49

المنهج الإثنوغرافي واستكشاف الحركات الاجتماعية في فلسطين: أنثروبولوجيا الهبّة 2011-2021 71

"السردية التاريخية" وحتميّة عبور النهر 87

صحافة الرحلة.. أن تكون مكانًا 97

أنثروبولوجيا وصحافة.. نظرة عن كثب.. أو أن تقترب أكثر من ميدان البحث 113

مقاربات أنثروبولوجية لعالم الانترنت: دعوة إلى عالم الويب 129

مناقشة المحظور: اثنوغرافيا الحب في جزيرة "قشم" الإيرانية 149

المساهمون في الكتاب

إسماعيل ناشف

إســماعيل ناشف هو أستاذ مشــارك ورئيس برنامج علــم الاجتماع والأنثروبولوجيــا في معهد الدوحة للدراسات العليا، عمل في عدة جامعات عربية وأجنبية. بالإضافة إلى عمله كباحث جامعيّ، فهو يعمل كناقد أدبي وفني وكقيّم معارض، وله عدة نصوص أدبية. شــارك في تأســيس مشاريع ثقافية وفكرية مختلفة بأطــر جامعيــة، وأخرى عامة. تشــمل اهتماماتــه البحثية والنظرية المادة واللغة والإيديولوجيا والتشكيل الأدبي والفني وعلم الجمال. أما من حيث الحالات الدراســية العينية، فهو يهتم بالســياق الاستعماري، عامة، والعربي-الإسلامي والفلسطيني، تحديداً.

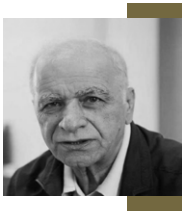

زهير الهواري

أستاذ جامعي وباحث وصحفي من لبنان، كتب في العديد من الصحف والمــجلات العربية، وصدرت له مجموعة واسعة من المؤلفات المعنية بالتاريخ الثقافي والاجتماعي والسياســي في العالم العربي، مــن بينها "تاريخ مــن لا تاريخ لهم"، و"حكايا هرج ومرج الأجداد"، و"مشاهد التعليم في العهدين العثماني والفرنسي"، و"الاجتياح الاقتصادي الإسرائيلي للبنان"، وكتاب "السلطة والمعارضة في الإسلام".

لينا شنك

صحفية ومترجمة من الأردن، حاصلة على شـهادة البكالوريوس في العلوم السياسـية. صدر لها كتاب "قاع المدينة" عام 2019، وهو كتاب يوثّق حكايات سـكّان أحد الأحياء الشعبية في العاصمة الأردنية عمّان عبر عدسة أنثروبولوجية.

إيمان مرسال

كاتبـة وأكاديميّة مصرية وشـاعرة، صـدر لها عدّة كتب، من بينها: "كيف تلتئم: عن الأمومة وأشباحها" عام 2017، وكتاب "في أثـر عنايات الزيات" عام 2019، إضافة إلى عدة مجموعات شـعرية من أبرزهـا "ممرّ معتم يصلـح في تعلّم الرقص". تُرجمت مختارات من أعمالها إلى أكثر من عشرين لغة.

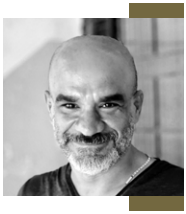

يوسف رخا

كاتب وشـاعر من مصر، ولد عام 1976، حاز شـهادة البكالوريوس في الآداب من جامعة "هل" البريطانية. صـدر له عدد مـن الروايات؛ مـن أبرزها "كتاب الطغرى" و"التماسـيح" و"باولو". له كتب في أدب المكان؛ منها "بيروت شي محل" و "بورقيبة على مضض" و"شمال القاهرة-غرب الفلبين".

سعد عميرة

أكاديمي وباحث فلسطيني مهتم بالإيكولوجيا السياسية، والتاريخ الاجتماعي، والحركات الاجتماعية في فلسطين. يدير حالياً برنامج الدراسات الحضرية في كلية القدس-بارد في جامعة القدس. أسس مبادرة "ذكريات فلسطينية مهددة"، التي تعنى بتوثيق التاريخ الشفوي لفلسطين الخاص بالفترة ما بين النكبة والنكسة.

خالد زيادة

كاتب لبنانيّ وأستاذ جامعيّ وباحث في التاريخ الثقافي والاجتماعي ودبلوماسي سابق، ولد في مدينة طرابلس عاصمة الشمال اللبنانيّ عام 1952، ودرس في مدارسها الرسميّة، وانتسب إلى قسم الفلسفة في كلّيّة الآداب بالجامعة اللبنانيّة، وحصل على الإجازة في الفلسفة، كما حصل على الدكتوراه عام 1980 من جامعة السوربون- باريس.

ماريون بروتو

أستاذة مساعدة في علم الأنثروبولوجيا في قسم العلوم الاجتماعية والسلوكية في الجامعة الأميركية في الكويت.

إيلاهي حبيبي

مخرجـــة أفلام وثائقية من إيران وباحثة في مجال الأنثروبولوجيا البصرية والدراسات الجندرية والتاريخ. تهتـــم إيلاهي بدراســـة التقاطعات بيـــن الثقافة البصريـــة والتاريخ الاجتماعي، مع التركيز على دور صور الثورة والحياة اليومية والنزاعات في تشكّل الذاكرة الجماعية والهويات الوطنية.

هيجياني دوناسمنتو فيريرا

أنثروبولـــوغ وباحثة في مجال العلـــوم الاجتماعية من البرازيل.

تقديم

على عكس الصحافة التقليدية التي تميل إلى السرعة والتكثيف، تمتاز الصحافة الأنثروبولوجية أساسًا بمحاولة الولوج إلى عمق الظواهر والمواضيع، والانخراط الشغوف والطويل في تفاصيل الحياة اليومية للناس ومعايشتهم. فالصحافة القائمة على النظر الأنثروبولوجي والتي تتوسل أدوات هذا الحقل العلمي لا تكتفي بالوصف العابر للوقائع وجمع المعلومات من المصادر المفتوحة والأولية، بل تسعى إلى التقاط ما يظل عادة غير مرئي في الصحافة اليومية؛ فتقدم لوحة منسوجةً من العادات والممارسات والمشاهدات والأحاديث الحميميّة والتوترات الخفيّة والتناقضات التي تعشش عادة في الحياة الاجتماعية لأي جماعة من البشر.

يبين هذا الكتاب الجديد أن للصحافة الأنثروبولوجية دلالاتٍ متعددة، ابتداء من التحليل الأنثروبولوجي للإعلام والعاملين فيه وجمهوره، وصولًا إلى التطبيقات العملية الهادفة إلى توظيف أدوات النظر الأنثروبولوجي في العمل الصحفي. كما يعدّ هذا الكتاب - المتألّف من سلسلة متماسكة من المقالات البحثية المطوّلة التي أعدّها مجموعة من أبرز الكتّاب والباحثين - محاولةً فريدة في أدبيات الصحافة العربية المعاصرة لإنعاش النقاش الضروري حول طبيعة العلاقة التقاطعية بين ممارسة الأنثروبولوجيا وممارسة الصحافة، وعن إمكانات الاستفادة من المناهج والمقاربات الأنثروبولوجية في إعداد التقارير والتحقيقات الصحفية، والاستثمار في تقاليد الحقلين من أجل فتح آفاق جديدة لصنعة الصحافة العربية.

فعلى الرغم من تصاعد الاهتمام بهذا التقاطع بين العلوم الاجتماعية والصحافة عالميًا - ولاسيما في التقليد الصحفي الغربي منذ ستينات القرن الماضي - فقد ظل هذا الاهتمام على مستوى الممارسة أو التنظير له والنقاش حوله محدودًا في العالم العربي. يبرز هذا القصور رغم الحاجة الملحّة لمثل هذا الشكل من التقاطع، واستعداد أجيال جديدة من الصحفيين العرب لنوع جديد من العمل الصحفي يتجاوز الزوايا الإخبارية التقليدية القائمة على الإثارة والسطحية، وينتقل إلى تقديم قصص صحفية معمقة مليئة بالتفاصيل وتعتمد على المعايشة المباشرة والاقتراب أكثر من التجارب اليوميّة للناس، بدل الاكتفاء بالظواهر "الخبريّة" اللافتة. وفي هذا الجانب تحديدًا يكمن ذلك التقارب بين الصحفي الجديد والباحث الأنثروبولوجي؛ إذ يتوخّى كلاهما مشاهدة العادي واليوميّ، والبحث عن القصص الإنسانية الأصيلة، والكتابة عنها وعرضها وفق مقاربات سرديّة وتفسيرية مهنية، دون مبالغة في التخوّف من الاقتراب من المصادر؛ أي من الناس العاديين، والاستماع إلى حكاياهم والانفتاح عليها.

نتعامل في معهد الجزيرة للإعلام مع تجارب صحفية متعددة ونتشابك معها بغرض التوثيق والترشيد والتطوير، ونلاحظ في الوسط الصحفي العربي ملامح اهتمام متجدد من طرف صحفيين في دول عربية مختلفة بممارسة أعمال صحفية بحثيّة تمتدّ أسابيع أحيانًا؛ من أجل إنتاج تقارير أقرب ما تكون إلى "الصحافة الإثنوغرافية"، التي تقارب اللحظات العامة في مجتمع عربي ما بأدوات صحفية تستلهم الأنثروبولوجيا، وتتعامل مع "الحدث" الخبري باعتباره دراسة حالة اجتماعية تخبئ وراءها أسرارًا وحكايات ينبغي البحث عنها وتسجيلها، باعتبار ذلك إمكانات جديدة في عملية تشكّل الواقع الاجتماعي، ومنه الواقع الصحفي الجديد في عالمنا العربي.

فكلتا المقاربتين - في الصحافة كما في الأنثروبولوجيا - تنطلقان من فضول عميق ورغبة في فهم حياة الإنسان وكيفياتها وشروطها المختلفة، ووفق هدف تفسيري لا يكتفي بعرض الوقائع فقط، كما يفعل التقليد الخبري "المدمن" على الحدث والمرتهن إليه وإلى معاييره المعروفة من القرب الجغرافي، والأهمية، والتوقيت، والغرابة، وغيرها. هكذا يفسح النظر الأنثروبولوجي مجالاتٍ أوسعَ وأكثر مرونة أمام الصحفي للمراقبة المتأنية والمعايشة والتفسير والشكّ والتأمل النقدي، وهو ما يشجعه على الانخراط الفاعل في نسيج الواقع الذي يرصده، بعد الإقرار - من منظور مشترك مع الأنثروبولوجيا الإثنوغرافية - بأنّ "الحقيقة الموضوعية" أكبر من اختزالها في تقارير صحفية موجزة ومترفّعة عن الناس وبعيدة عنهم.

لا شكّ أن الصحافة اليوم تواجه تحديات كبرى وأزمات متراكمة، ازدادت حدّة مع الظروف التي فرضتها حرب الإبادة الإسرائيلية في قطاع غزّة، وما رافقها من تراجع كبير في مستويات الثقة بالصحافة وجدواها، واستمرار التضييق عليها في العديد من الدول في المنطقة العربية، فضلًا عن تواصل تغوّل منصات التواصل الاجتماعي وهيمنتها على الفضاء العامّ وتأثيرها بالتالي على المنتج الصحفي ومعاييره المهنية والأخلاقية. إلا أنّ اختيار معهد الجزيرة للإعلام موضوع هذا الكتاب تحديدًا، والإصرار على سبر العلاقة بين الصحافة والعلوم الاجتماعية والإنسانية، والاهتمام بهذا المشروع الطموح في مثل هذه الأوقات المضطربة، نابع من الإيمان بأهمّية هذه المقاربات الصحفية الجديدة في مقاومة حالة التجريف التي لا تطال واقع الممارسة الصحفية فحسب، بل كذلك الإنسان العربي نفسه.

معهد الجزيرة للإعلام

الفصل الأول

الصحافة والأنثروبولوجيا: كيف يحصل اللقاء؟

تحملنا كلّ من كلمتي "الصحافة" و"الأنثروبولوجيا" إلى عالمين أكاديميين مختلفين يبتعدان لكن لا يتنافران. محاولة دمج المصطلحين/الاختصاصين قد تكون غير معنية بتحقيق تقارب أكاديمي بمقدار اهتمامها بدراسة إمكانيّة الاستفادة الصحفية من تقنيات البحث في مجال الأنثروبولوجيا، وتحديداً الإثنوغرافيا، استفادة طامحة إلى تطوير العمل الصحفي؛ عبر اعتماد تقنيات جديدة قادرة على نقل السرديات الصحفية - وغيرها من الأنماط - من ضفة المعالجات التقليدية إلى حالة تقترب فيها من عملية توثيقٍ جدية للظواهر المجتمعية، ضمن سياقات وأبعاد كثيراً ما تبقى مهملة في المجال الصحفي.

ربما يحتاج الأمر إلى قليل من الجرأة ومزيد من الوقت للصحفي لإنجاز عمله، وكذلك تمتين بعض التقنيات واستقدام بعضها الآخر من ميادين علمية أخرى وتحديداً الإثنوغرافيا. هذه الحماسة لتصيير العمل الصحفي جزءاً من تراكمٍ معرفيّ واسع لا يمكن أن ينجح من دون شق أبواب المكاتب وشبابيكها قليلاً، والتسلّل منها إلى عوالم أكاديمية أخرى، وهذا لن يكون ابتكاراً لنوع صحفي جديد؛ فالتسلّل حاصل ولكنه ما يزال استثناء.

اعتادت كليات الإعلام على تنويع مواد برامجها التعليمية بهدف تحصين الصحفيين وتوسيع معارفهم، ولكن غالباً ما يقتصر الأمر على مرورٍ سريع على تاريخ الفنون أو العلوم الاجتماعية والإنسانية وعلم الإحصاء وغيرها. ولكن هل توجد محاولات تدريس جديّة وعميقة للعلوم الاجتماعية والإنسانية بشكل عام، والأنثروبولوجيا والإثنوغرافيا بشكل خاص؟ هذا ما يُحاول هذا الكتاب إفساح المجال له؛ أي محاولة اكتشاف أرضية مشتركة

بين الصحافة والأنثروبولوجيا، ومحاولة سبر أغوارها بهدف الوصول إلى صحافة أكثر ثراءً وإفادة.

ما زالت الأسئلة كثيرة حول هذا التعاون، حتى إنّ النقاش حوله ليس واسع النطاق بعد؛ فما الذي قد يستعيره الصحفي من باحث في مجال الأنثروبولوجيا؟ هل اختلاف أهدافهما العمليّة والعلميّة قد يلغي احتمالات الاستفادة؟ ماذا عن الوقت المتاح لإنجاز العمل الخاص بكل منهما؟ وهل يكون الأخير عائقًا أمام استعانة الصحفي بهذه الأدوات؟

من أجل مناقشة قابليّة هذه الاستفادة، طرحنا مجموعة من الأسئلة على أستاذين جامعيين لكل منهما خبرته في واحد من الاختصاصين، كانت جلسة تفكير مشتركة حاولنا خلالها إعادة تعريف كل من الصحافة والأنثروبولوجيا، ومحاولة سبر أغوارهما لإيجاد النقاط المشتركة ومحاولة فهم مصطلح "الصحافة الأنثروبولوجية" أو فكرة الانغماس الصحفي في تطوير أدوات جديدة. راجعنا أدبيات متعلقة بالأنثروبولوجيا بصفته مجالا علميا، وتطرّقنا إلى الإثنوغرافيا بالتعريف والشرح المفصّل، كما حاولنا معهما البحث عن التقاطعات المحتملة بين الاختصاصين: معنى المُدّة الزمنية لإنجاز العمل النهائي وتأثيرها، وتأثير ذلك على نوعية المنتج، ما هي شروط المقابلة؟ وما هي أنماط بناء العلاقات وتقنيّات المشاهدة والتدوين؟ وغير ذلك من القضايا.

أُعدّت أسئلة هذه المقابلة وحُرّرت بشكل يراعي احتمال أن يكون القارئ غير متخصص في أيّ من المجالين؛ لهذا اعتمدنا تقديم المعلومات تصاعديًّا، والانتقال من الأفكار العامة والتعريفات وصولاً إلى محاولة الإجابة عن

أسئلة أكثر تخصّصًا. سنحاول فيما يلي استعراض ما تم التطرق إليه في هذه الجلسة التي جمعت الأستاذ المشارك في برنامج علم الاجتماع والأنثروبولوجيا في معهد الدوحة للدراسات العليا إسماعيل ناشف، والأستاذ الجامعي والصحفي زهير الهواري.

تعريفات ومفاهيم

انطلق النقاش من محاولة إعادة تعريف كلّ من ناشف والهواري - بخلفياتهما الأكاديمية والمهنية المنوّعة - لكلمة الصحافة؛ بدأنا بإسماعيل ناشف وهو الآتي من الضفة الأخرى أي الأنثروبولوجيا، وربما لهذا أصرّ قبل تقديم أي تعريف على تحديد موقعه وصلاحيته بالنسبة إلى هذا الميدان "أنا أتحدّث من خارج عالم الصحافة وليس من داخله، هذه فكرتي عن الصحافة وليس تماما التعريف العلمي المباشر لها".

تعريف ناشف للصحافة:

الصحافة هي مؤسسة أو فضاء اجتماعي مبني على الاتصال، وله عدّة مستويات. أوّل ما يُميّزها هو تداول المعلومات ثمّ موقعها في الفضاء العام الساعي إلى طرح نوع من السرديّة التي يُمكن لجميع القوى السياسية والاجتماعية المشاركة فيها. مع كل هذا تبقى الميزة الأساسية هي عملية الاتصال، بشرط تاريخي يعتبر الجمهور مفهوماً أساسيًّا... في رأيي، ومن السياق الذي أنا آتٍ منه، أرى أن الصحافة هي حيّز في الفضاء العام، هي المكان الذي يلتقي فيه الناس، الصحافة هي مكان كأي ملتقى آخر، مكان يُشبه المقهى أو المسرح أو الشارع... مكان للحراك الاجتماعي والسياسي والثقافي، مكان نشيط.

ولكن هل يجب أن تكون الصحافة انعكاساً للمجتمع أم مؤسسةً تثقيفية يفترض أن تسمو عليه؟

يصعب تقديم إجابة واحدة لأنه لا يوجد وصفة مسبقة. نحن الآن ننظر لما هو قائم. من خلال قراءتي للصحف وعنها وعن وسائل الاتصال الجماهيرية، لا أجد وصفة مسبقة لما يجب أن تكون عليه الصحافة باستثناء أنها أصبحت الفضاء الثالث؛ فالأول الدولة أي القطاع العام، والثاني القطاع الخاص ويليهما الصحافة.

زهير الهواري، قدّم تعريفه للصحافة انطلاقاً من خبرة مهنية طويلة في المجال، تحديداً في جريدة السفير اللبنانية؛ فهو يرى أنّ كلّ وسيلة تتوجّه إلى جمهور ما بأخبار وتعليقات وتحليلات ومقابلات وتحقيقات... يُمكن اعتبارها صحافة.

تعريف الهواري للصحافة:

الصحافة تشمل كل الوسائل المتوفرة حالياً أو التي يُمكن أن تتوافر لاحقاً، وهي تضمّ - إلى جانب الصحافة الورقية والمجلات والنشريات المتخصصة - المدونات الإلكترونية بما فيها التي قد يبدو عليها أنها شخصية على اعتبار أنها باتت أحد مصادر الإعلام التي تتجاوز شخص المُرسل إلى المُتلقّي، وتحمل رسالة إعلامية أيًّا كان مضمونها.

أما تعريف الأنثروبولوجيا فلم يكن محطّ جدل؛ فقد التقى ناشف والهواري في تعريفهما العام لهذا الاختصاص: علم الإنسان أو علم الأناسة في

حاضرها أو ماضيها. الصحفي زهير الهواري - وهو أستاذ جامعي في التاريخ وعلم الآثار - قدّم تعريفاً للأنثروبولوجيا وهو على حدّ قوله التعريف الأقرب إليه:

تعريف الهواري للأنثروبولوجيا:

إن الأنثروبولوجيا كما صارت عليه اليوم هي عملية حفر معرفي بأحوال الإنسان والمجتمعات وسلوك الأفراد والجماعات البشرية وثقافاتها ومعارفها وعاداتها ومعتقداتها وآدابها وما تمليه عليها من سلوكيات. لقد أطاحت موجات التنوير بالموروث والنظرة الاستعمارية القديمة لهذا العلم؛ إذ لم تعد الإلياذة مجرد خرافة وكذلك ملحمة جلجامش، ناهيك عن الحكايات الإفريقية والفلسفات الهندية والصينية وكذلك ثقافات وعلوم الهندسة والفلك لدى الأزتيك والمايا والآشوريين والمصريين وغيرهم من الشعوب على النحو الذي صوره دُعاة الاستعمار سابقاً، بل باتت محل اعتراف وتقدير واحترام لدى الشعوب والنخب الثقافية.

أخلص مما سبق للقول إن الصحافة هي علم الإعلام للنشر الموجه للجمهور مباشرة، بينما الأنثروبولوجيا هي علم الإنسان الموجه نحو طلبة الجامعات والمتخصصين، لكن هدفهما واحد: هو الإنسان ومحاولة فهم تعقيدات حياته النفسية والفكرية والمادية.

استعرض الباحث إسماعيل ناشف مختلف المدارس الأنثروبولوجية في سياق التعريف الذي حاول تقديمه، وكانت هذه محاولة للإشارة إلى أنه من الصعب إيجاد تعريف واحد موحّد، ولكن الفكرة الأساسية تتمحور حول

أن الأنثروبولوجيا هي عملية دراسة الإنسان بكل تفاصيله. وكالنقلة التي اعتمدها الهواري، تسلّل ناشف من تعريف الأنثروبولوجيا إلى الحديث عن علاقتها المحتملة مع الصحافة، وذلك عبر التطرّق إلى الإثنوغرافيا تحديدا.

تعريف ناشف للأنثروبولوجيا:

من الصعب تعريف الأنثروبولوجيا، ولكن ما يهمّنا هو سياق التقاطعات مع الصحافة؛ أي العمل الميداني. هذا المنهج الذي يُميّز الأنثروبولوجيا عن السوسيولوجيا، وهو ما نُسمّيه الإثنوغرافيا. هذه الأخيرة هي عبارة عن دراسة ممنهجة عن طريق الملاحظة بالمشاركة، دراسة ممنهجة تأخذ على الأقلّ سنتين من العمل الميداني. أنا هنا أتكلّم عن النموذج الكلاسيكي الذي يتفرّع منه الكثير من التحويرات. هذه الإثنوغرافيا تشمل المشاركة بالملاحظة التي يأتي ضمنها العديد من التقنيّات كالمقابلة والتدوين أو اليوميات وتسجيل البيئة الماديّة للمجتمع وكذلك بناء علاقات طويلة الأمد مع أهل البلد الذي هو قيد الدراسة، والعمل الأرشيفي، وإتقان اللغة واللهجة، وغيرها.

الأنثروبولوجيا هدفها الإنتاج المعرفي بالمفهوم المُعمّق للمعرفة العلميّة عن فئات اجتماعية محدّدة.

آليّات التشبيك

إنّ تطوير أي طرح جديد يمرّ بإعادة التعريف؛ وضع الطرح كاملاً على أرض فارغة ثم إعادة البناء. ولكن التعريفات ليست إلا طبقةً تتيح الصعود

أكثر؛ فحديث التعاون بين الصحافة والأنثروبولوجيا يحتاج بشكل أساسي إلى فهم أشكال التشبيك الممكنة: كيف نربط هذه (الصحافة) بتلك (الأنثروبولوجيا)؟ من أين نبدأ؟

النقاش الذي بدأ بالتعريف تدرّج بسلاسة دافعاً النقاش نحو إمكانية التشبيك مع الصحافة وتحديداً عبر استخدام تقنيّات البحث المُعتمدة في الإثنوغرافيا. هذه الاحتماليّة قائمة بالنسبة للهواري أيضا:

الهواري:

احتماليّة التشبيك فعليّة، وتجد مستندها في وحدة الهدف والكثير من الأدوات المشتركة المستعملة في كلا الاختصاصين. من المعروف أن الصحافة كانت خلال القرون الماضية تتجه إلى الإنسان في لحظته الراهنة على الصعد السياسية والاقتصادية والثقافية والعلمية وغيرها... إلاّ أن تطورها حكم عليها بالقيام بأعمال حفر معرفية بالنظر إلى إدراكها مدى تداخل الأقسام وتعقّد دوافع السلوكيات التي تحكم أعمال الإنسان، وهو تحديداً ما تشتغل عليه الأنثروبولوجيا، وإن كان بتوجيه مكثّف نحو المجتمعات القديمة (...) وعليه، وكما احتاجت الأنثروبولوجيا إلى معارف كثيرة مثل التشريح والبيولوجيا وهندسة المدن وتطوّر الصناعات... فالصحفي بدوره أحوج إلى الإحاطة بمجريات ما نعيشه اليوم من تطورات سريعة. وكلّه يأتي بهدف اكتشاف مدى تعقيد حياة الكائن البشري خصوصًا في زمن تشابك الأزمات وتجاوزها للحدود السياسية والجغرافية، ولكن تظلّ احتمالية التشبيك مرهونة بتوافر شروطها لدى كل من الصحفي والباحث في مجال الأنثروبولوجيا على السواء.

يرى الهواري في مصطلح "الصحافة الأنثروبولوجية" طرحاً يهدف إلى التعمّق في المشكلات ومقاربتها بجديّة ومسؤولية، ولكن هل يرى قابليّةً لتوسيع استخدام هذا المصطلح من الناحية العمليّة في الصحافة؟

الهواري:

في الحقيقة، بصفتي صحفيا تأخذ الأنثروبولوجيا مكاناً مهما وأولويّةً، ولكن يتوجب على الصحفي التشبيك مع عدد كبير من العلوم والمعارف وليس فقط الأنثروبولوجيا. إن العمل السريع هو الطريق الأسرع إلى التسطيح، ولعلّ الناس تعرف كم ابتعدت الصحافة عن المقارنات المسؤولة والعميقة ممّا أدى إلى الطفرة التي نعيشها اليوم؛ إذ صار كل ما يُكتب في الإنترنت يلقى رواجاً ولا تعرف مدى صحة الخبر أو دقته. أراهن بأن الدمج بين الصحافة والأنثروبولوجيا سيقود إلى تعميق الاهتمام بالصحافة، وتالياً اعتبارها مصدراً معرفياً مهما وليس فقط مصدراً للأخبار، ستصير الصحافة - مع هذا المجال - وسيلة من وسائل تكوين ثقافة جدية للمجتمعات، سواء على الصعيد الفني أو الثقافي أو الاجتماعي والسياسي.

ولكن ما هي هذه الأدوات المستخدمة في الإثنوغرافيا التي يُمكن اعتمادها صحفيّاً؟ هل هي المشاهدة والمقابلة والتحليل والمقارنة؟

طرحنا هذا السؤال على إسماعيل ناشف، فبدا له وكأننا نفترض وجود صندوق "عدّة" جاهز يكفي فتحه لتحقيق التشبيك، ولكن الحل في رأيه لا يكمن هنا بل في طريقة استخدام الطرفين هذه الأدوات، سواء الباحثين في مجال الأنثروبولوجيا أو الصحفيين، وهذا يعني أن الطرح يجب أن يهتمّ

بكيفية استخدام هذه الأدوات، وليس مجرد اكتشاف طبيعتها وماهيّتها.

ناشف:

الأنثروبولوجيا من الممكن أن تتقاطع مع الصحافة وتسهم فيها أيضاً؛ وذلك عن طريق نوع من الذائقة الحسيّة التي يكتسبها الباحث خلال عمله الميداني، ما هي هذه الذائقة؟ الظواهر دائماً أو ما ندركه بالحواس الخمسة ليس حتماً بالشيء المهم.

في الأنثروبولوجيا لا ننطلق من مبدأ أن العالم مشكلة بل من مبدأ أن الواقع يعمل وفق قوانين، ووظيفتنا - بصفتنا باحثين - استخلاص قوانين هذا الواقع. لحظة دخول الصحفي إلى هذا الواقع يصير لحظة من امتداد زمني. كتابة خبر صحفي عن حدث ما هو تعبيرٌ عن عمليات اجتماعية واقتصادية وسياسية عميقة؛ لهذا فالتحدّي أمام الصحفي ليس في تقنياته المُستخدمة بل في كيفية استخدامها. وهنا يُطرح سؤالان أساسيان ينطلقان من فكرة أن الإثنوغرافيا تمتدّ على فترة زمنية طويلة مقارنة مع الصحافة:

كيف ستتمكّن الصحافة من إدخال هذا البُعد الزمني الطويل في كتابتها وتفكيرها من دون قضاء فترة طويلة على الأرض؟ أمّا السؤال الثاني فهو كيف تكتب؟

الكتابة في عالم الأنثروبولوجيا مفصليّة وحاسمة. جمع المعلومات وكيفيّة توظيفها وكتابتها أمرٌ قائمٌ بذاته. جزء من الذائقة الحسية للباحث في مجال الأنثروبولوجيا تكمن في كيف يكتب وكيف يفهم المسائل المطروحة أمامه

وكيف يراها؟ من يحقّ له أن يكتب عمّن؟ يوجد تقنيات سردية مختلفة في الإثنوغرافيا، وطبعاً عملية الكتابة الصحفية لها قواعدها وأسسها. من الممكن دمج الكتابة الصحفية مع تقنيات الكتابة الإثنوغرافية التي تعتمد أصلاً على مفهوم الوصف المُكثّف، فالكثير من الصحفيين يستخدم هذا المفهوم في كتابته، ولكن ما أعنيه هو حضور الذائقة الحسية أثناء الكتابة الصحفية: الإيقاع الداخلي، وفهم المهنة، وفهم العلاقة مع الواقع والعلاقة مع المحرّر... إلخ. إذا أراد الصحفي فتح آفاقه باتجاه الإثنوغرافيا، يجب أن يسأل نفسه عن حضور هذه الذائقة الحسية.

السؤال الذي طرحه إسماعيل ناشف حول المهل الزمنية المتاحة للكتابة أو الإعداد عند الصحفيين وكيفية الصياغة، حاول زهير الهواري الإجابة عنه فاتحاً الباب على أسئلة جديدة بما يسمح برؤية المعضلة من زوايا أخرى.

الهواري:

يُحتّم الإيقاع في العمل الإعلامي إنتاج مادة سريعة بينما يفرض العمل العلمي الأكاديمي فترات أطول، وهذا يطرح خلافاً جوهرياً، ولكن يُمكننا طرح السؤال من زاوية ثانية: لماذا لا يستطيع الصحفي إنتاج مادة سريعة وعميقة في آن؟

إذا استطاع الصحفي الجمع بين هاتين المعادلتين فسيتمكّن من الاقتراب من العلوم وتقريب الأخيرة من العلوم أيضاً. في تجربتي الشخصية كرئيس قسم كنت أعطي الصحفيين إجازات للقراءة، كانت محاولة تواطؤ لتكوين خلفيّة ثقافية لدى الصحفيين؛ فالكتابة تتطلّب امتلاك رصيد معرفي تصاعدي.

ولكن في سياق نقاشنا للأدوات وأشكال الكتابة وأنماطها ودورها في تعزيز المقاربة بين الصحافة والأنثروبولوجيا، كان لا بدّ من التوقف عند سؤال مركزي يخصّ السؤال (الأول) الذي ينطلق منه الصحفي قبل توجهه إلى الميدان: كيف يصوغ الصحفي إشكاليّة موضوعه؟ وكيف يُمكن الاستفادة من تجربة العمل الأنثروبولوجي في هذه النقطة تحديداً؟ بدأ ناشف إجابته عن السؤال بافتراض ضرورة بناء الصحافة الأنثروبولوجية على أشكال سابقة من العمل الصحفي؛ بمعنى التطوير وليس الهدم، وتالياً خلق توليفة جامعة بين القديم والجديد، والسؤال جزء من هذه التوليفة ولكنه ليس هدفاً بعينه في هذه المرحلة.

ناشف:

ينطلق الصحفي من سؤال مختلف عن سؤال الباحث في مجال الأنثروبولوجيا، ولكن الفكرة تكمن في ما نريده من الصحافة الأنثروبولوجية؛ هل نريد خلق نمط صحفي جديد؟ هل سيتمّ إعداد هذا النمط بشكل مسبق أم سنقوم بتجارب؟ ما هو الغرض من هذه الممارسة؟ هذه أسئلة تحتاج إلى إجابات، وبعدها يُمكننا الانتقال إلى تسمية الصحافة الأنثروبولوجية. يحضرني هنا كتاب عن مدينة لوس أنجلس الأميركية أعدّه وكتبه أحد الصحفيين، هذا الكتاب أهمّ من أي كتاب بحثي عن العمارة؛ ما أريد قوله من خلال هذا المثال أنه عوضاً من البدء من العنوان أو من الإشكالية علينا التفكير أكثر في الممارسة نفسها، علينا استحضار نماذج مختلفة ودمجها.

في عودة إلى أدوات البحث في مجال الإثنوغرافيا وما يُمكن أن يستعين به الصحفي، طرحنا سؤالاً حول ما يُمكن إضافته على المشاهدات المكثفة والمركبة، وتقنيات المقابلات واعتماد أساليب تحليل مختلفة... هل هذا ما يجب استقدامه إلى عالم الصحافة، وبذلك نعتبر أن المهمة تمّت بنجاح؟ ناشف أجاب سريعاً "أضيف مفهوم المُستند، ففي السابق لم يكن هذا العنصر متوفّراً بسبب طبيعة المجتمعات التي كانت قيد الدراسة، أما اليوم فتتوفّر مستندات وصور، وهذه جميعاً تتطلّب المعالجة وانتباه الصحفي لها وتحتاج تقنيات منهجية واضحة".

بينما كان ردّ الهواري أكثر توسّعاً، وفي الوقت نفسه حاسماً.

الهواري:

طبعاً لا. عندما تكلّمت عن التشبيك كنت أقصد تحديداً تعميق دراسة الحالة أو الحادثة أو الظاهرة؛ فلنأخذ مثالاً عن تحقيق صحفي في أحد مخيمات اللاجئين: قد يجلس الصحفي من ساعة إلى ساعتين يجري مقابلات ويكتب ويحاول أن يفهم، ولكن ما عليه فعله أيضاً هو محاولة فهم تاريخ هذا المخيم، على سبيل المثال: كيف نشأ؟ ولماذا؟ وما هي أصوله الاجتماعية والعائلية؟ وما هي مهن المقيمين فيه؟ عشرات الأسئلة من المفترض أن تُطرح؛ فالأسئلة التي يطرحها الصحفي على نفسه محاولا أن يجد إجاباتها هي ذات أهمية كبيرة، وكذلك هي أهمية التعرف على المشكلة لتقديم صورة واضحة إلى القارئ والمتفرّج. يوجد قصور فعلي في هذا الجانب، وهذا يتم حله عبر تعميق دراسة الموضوع.

لكن كيف يجري هذا التعميق؟

تكلّم إسماعيل ناشف عن المستندات والوثائق: أنا أريد التشديد على أهمية الأرشيف، يجب أن يعرف الصحفي أن المشكلة التي يتقصّد معالجتها ليست وليدة اللحظة، بل هي نتاج تراكم يمتدّ على سنوات. أؤكد على أهمية الوثائق وعلى المعرفة؛ فالمطلوب عدم التسرع لكيلا تنتج بذلك رؤية سطحية للمشكلات.

أحمّل الصحافة وهيئات التحرير مسؤولية عدم رفع مقاييس الأداء الصحفي، وهذا يجب أن يتمّ من خلال التعاون مع مؤسسات أكاديمية ومن خلال زيادة التخصّص، لا يمكن لشخص درس الصحافة فقط أن يتطرّق بسهولة إلى الاقتصاد مثلاً، يجب تعميق البحث في العلوم والمعارف، وهذا لا يحصل فقط من خلال الخبرة الميدانية.

المؤسسة الإعلامية وتدريب الصحفي

هذا الحديث عن السرعة وأنماط إنتاج العمل الصحفي نقل الحديث إلى المؤسسة الإعلامية ذاتها ودورها في تمهيد الطريق للصحفي من أجل إنتاج أعمال أكثر عمقاً وفهماً للتركيبات المجتمعية؛ هل تأمين الإشباع المعرفي صحفياً منوط فقط بعمل الصحفي نفسه؟ برأي ناشف، من الممكن أن نكتب مادة ذات جودة في وقت سريع، تماماً كما يُمكن إخراج مادة سيئة مهما أخذ تحضيرها وتنفيذها وقتاً، لهذا يجد ناشف أن طريقة إنشاء الصحفي وإعداده تؤدي دوراً مركزيا في نوعية عمله النهائية.

الهامش النقدي الذي تعتمده المؤسسة الإعلامية يؤدي دوراً في نوعية العمل الصحفي، المؤسسة لاعب أساسي في هذا النقاش؛ فهي المسؤولة عن تأمين الموارد المادية والمعنوية للصحفي، إذن كيف نُعيد التفكير في هذه المؤسسات الإعلامية؟

سؤال المؤسسة سؤال مفصلي؛ فطريقة تفكير موقع إخباري يعمل فقط على الأخبار العاجلة والسريعة، بالتأكيد تختلف عن تفكير مؤسسة ضخمة بأقسام مختلفة ومتنوعة. اليوم، المؤسسات العربية فيها عدة إشكالات، ومن الملاحظ أن التحقيقات الصحفية الجدية مثلاً انتشرت في فترات المدّ القومي، ولكن في أيامنا هذه غلب السوق ولم نعد نرى أي عمل صحفي استقصائي إلاّ نادراً، يجب تعزيز مشاريع الجودة التي تحمل فكرة تتجاوز الربح البحت.

نقاش دور المؤسسة الإعلامية ومساهمته في تحسين جودة العمل الصحفي ونوعيّته هو نقاش حاضر وأساسي بالنسبة إلى الهواري، لهذا حاول الانتقال به إلى أبعاد أخرى؛ مثل مساحة الحرية في المؤسسات الإعلامية التي قد تسهم في ليّ عُنق المحتوى وتشويهه حتّى من دون تدخل رقابي مباشر.

الهواري:

نعم يضطرّ الصحفي - تحت وطأة سرعة إيقاع الأحداث وتعددّية وسائل الاعلام وتنافسيّتها - إلى أن يكتب بسرعة لنشر مادته أو بثها، وهكذا يُصبح التدقيق المتكرّر في ما كتبه أو أعدّه أمراً متعذّراً، بينما لدى الباحث في مجال الأنثروبولوجيا القدرة والوقت لكتابة أكثر من مسودة، ولكن

المعضلة الأصعب تتمثّل في سيطرة إدارة المؤسسة الإعلامية على الصحفي خلافَ الصروح الجامعية. المؤسف أن عددا من الصحفيين يتماهون مع مؤسساتهم ولا يمارسون استقلاليتهم عنها، وهو ما يصيب المقابلة والمشاهدات بتشوّه نظراً إلى محاولة الصحفي ليّ عنق الوقائع التي عاينها. في رأيي الشخصي، الصحفي مثقف هشّ؛ بمعنى أنه غالباً ما يتأثر بالمؤسسة التي يعمل فيها. إن تحسين نوعية المقابلة أو المشاهدات - لكل من الصحفي والباحث في مجال الأنثروبولوجيا - أمر يحتاج إلى مناخ واسع من الحرية للعاملين في المجال.

"قاع المدينة": كيف ننقل القصص بأصوات ناسها؟

لينا شنّك

صحفية ومترجمة من الأردن، حاصلة على شـــهادة البكالوريوس في العلوم السياســـية. صدر لها كتاب "قاع المدينة" عـــام 2019، وهو كتاب يوثّق حكايات سكّان أحد الأحياء الشـــعبية في العاصمة الأردنية عمّان عبر عدسة أنثروبولوجية

في بداية عام 2017، انهارت مبانٍ سكنية في منطقة جبل الجوفة[1] شرق العاصمة عمّان. على إثر الحادثة، كُلّفتُ بكتابة قصصٍ عن سكان تلك العمارات: من هم؟ أعمارهم؟ المهن التي يعملون بها؟ ماذا تعني لهم فكرة البيت؟ ما أسباب الانهيار من وجهة نظرهم؟ بماذا يُطالبون؟

كان عليّ أن أكتب قصصًا إنسانية قادرة على شرح الواقع من خلال فهم حياة هؤلاء الناس.

بعد أشهر، وفي سياق العمل على موضوع آخر، كنتُ أبحث عن "حالات"– كما نسميها في العمل البحثي والصحفي – حالات لنساء تعثّرنَ في سداد القروض الصغيرة التي انتشرت في تلك الفترة في الأردن، وأصبحنَ مهدّدات بدخول السجن أو دخلنه بالفعل. قادتني كلّ الطرق إلى الحيّ الذي شهد الانهيار، وتعرّفتُ هناك إلى إحدى السيدات التي تشعّبتْ في الكلام، وسردت لي تفاصيل من حياتها اليومية؛ تفاصيل لو لم تتناولها السيدة بشكل تلقائي وفردي لما خطر لي السؤال عنها، سواء لاعتقادي بأنها ليست على علاقة مباشرة بموضوع التقرير أو لأن المساحة المخصّصة للمقال لن تسمح لي بالتفرّع كثيرًا.

لكن ما سردته السيدة كان ضروريًّا في سياق فهم أوسع للموضوع، تفاصيل حملت حقيقة ما، طبعًا غير كاملة، لكنها دقيقة. دفعتني هذه التجربة للتفكير في قضاء وقت أطول مع السيدة وغيرها من سكان الحي؛ فهنا كمية حكايات غير محصورة زمنيًّا بين لحظة الانهيار وإعادة البناء، إنها تجربة تحتاج إلى "معايشة" الناس.

[1] جبل الجوفة منطقة تقع في شرق العاصمة الأردنية عمان، وهو من جبال عمان السبعة التي تتكون منها المدينة.

عندما فكّرتُ في مصطلح "المعايشة" كنت أفكّر بإجراء زيارات متكرّرة من دون أجندة محدّدة؛ أن أحاول كتابة قصة ليس لها موضوع محدّد بالمعنى المتعارف عليه؛ بحيث يكون الناس بتفاصيلهم اليومية هم الموضوع. أملتُ من خلال هذه الطريقة أن أتمكّن من فهم المعنى الحقيقي للتفاوت الطبقي والعنف والإهمال الحكومي وغياب تكافؤ الفرص؛ أي رؤية كيف تتجسّد كل هذه القضايا بعيني، أن أكون حاضرة في الموقف حين يتعرّض أحدهم للتمييز، وحين يحتاج إلى رعاية صحية حكومية ولا يجدها، وحين تشتدّ الضائقة المادية فيبحث الشخص عن طرق للتكيّف معها، أردت أن أرى أكبر قدر ممكن من هذه التفاصيل بدلاً من سماعها تُروى.

هل العمل الصحفي التقليدي محدود؟

في العرف الصحفي التقليدي، تُعتبر فكرة كهذه ضربًا من العبث وإهدارًا للوقت والجهد. في العادة، يُرسِل الصحفي مقترحًا لقصة ما، يحتوي المقترح على الفكرة، ولمحة عن البحث الأولي، وقائمةٍ بالشخصيات التي سيتحدث إليها، والأهم من ذلك أن عليه أن يُحدّد الوقت المتوقع لإنهاء القصة وتسليمها للنشر. عند نزول الصحفي إلى الميدان، قد يتفاجأ بوجود معطيات أخرى على أرض الواقع لم يضعها في الحسبان، وقد يتبيّن له بأن المشكلة أعمق مما ظنّ في المكتب، وهو ما قد يضطره لإجراء مقابلات أخرى، وربما تغيير كامل الفرضيّة التي بنى عليها موضوعه. في حالتي، لم يكن ممكنًا تقديم مقترح للقصص التي ستنتج عن المعايشة وفقًا لمتطلبات المقترحات التقليدية؛ إذ إنها تنطبق على فكرة لم تكتمل بعد وتنتظر الميدان كي يرشدها إلى الطريق، وكأنها عملية تحدث بالعكس هذه المرة.

لطالما كنت مهتمة - منذ أن بدأت العمل في الصحافة - بكتابة التقارير والقصص الصحفية، خصوصًا التي تولي أهمية قصوى للجانب الإنساني والسرد القصصي، ولم أكُن يومًا مهتمة بنقل الخبر الآني والحصول على سبق صحفي. أستطيع القول بأن جلّ ما أنتجته على مدار السنوات الماضية لوسائل إعلام مختلفة يتّبع واحدًا من نموذجين اثنين: إمّا تقرير صحفي يستعرض بعض الحالات المتأثرة بالقضية موضوع النقاش، أو قصة صحفية قائمة بالكامل على قصص أشخاص متأثرين بالقضية فتأخذ قصصهم المساحة الأكبر من المادة الصحفية.

فلنأخذ قضية حرمان المرأة من إعطاء جنسيتها لأولادها مثالا توضيحيا: يُمكن أن تكون المادة على شكل تقرير يبدأ بعرض قصة إنسانية؛ أي يختار شخصية متأثرة بالقضية مثل الأم أو الابن أو الابنة، نأخذ من هؤلاء اقتباسات تُعبّر عن أثر حرمان الأم من هذا الحق على حيواتهم؛ كأن يتحدثوا مثلاً عن التمييز في المعاملة في المدارس أو الجهات الحكومية أو عدم قدرتهم على السعي وراء أحلامهم لأن حرمانهم من الرقم الوطني يقف عائقًا في وجههم. بعد هذه الاقتباسات، نستعرض عادةً معلومات عامة لتوضيح القضية؛ كأن نُبيّن عدد النساء المتأثرات بالموضوع. ننتقل بعدها إلى استعراض وجهات نظر أشخاص داعمين لحق المرأة في إعطاء جنسيتها، أو معارضين لهذا الحق حتى آخر نفس. وأخيراً، يسعى الصحفي في هذا النموذج إلى الحصول على تعليق من الجهات الحكومية المسؤولة التي تُكرّر في العادة ما يقال في كل مناسبة أو تنفي أن تكون القضية قيد البحث بهذا الحجم وأحيانًا تنفي وجود مشكلة من الأساس.

أما في النموذج الثاني فقد نكتفي بعرض موجز للسياق في مقدمة القصة،

ثم نبدأ بعرض القصص الشخصية التي تحتوي على تفاصيل أكثر - مقارنةً مع النموذج السابق - لأشخاص يعانون من آثار هذا الحرمان، فنُقرّبهم للقارئ ونقدم المعلومات الأساسية عنهم (أعمارهم، وظائفهم، عدد أفراد عائلاتهم). ندعهم يتحدثون بإسهاب عن معنى أن تكون ابناً لأم أردنية، تعيش في الأردن منذ ولادتك ولكن لا يحق لك أن تحمل الجنسية. نتعرف على القصة من جانب إنساني بدلاً من مناقشتها من وجهة نظر سياسية بحتة، ونترك مجالاً للتعاطف بدلاً من التعامل ببرود مع القضية والاستسلام للمعارضة الحكومية وغير الحكومية المستمرة لمنح المرأة هذا الحق.

هذا نموذج آخر من القصص التي عملت عليها، ولا يوجد أي مشكلة - في رأيي - في كلا النموذجين، ولكنني أدركت بعد سنوات من العمل بأنهما - وإن كانا أفضل من النماذج التي تتعامل مع كل ما يحدث بتحليل الأرقام والأحداث وتعليقات المسؤولين - قد يعجزان عن الوصول إلى صورة كاملة.

دفاتر كثيرة وملاحظات أكثر

عندما بدأت العمل على كتاب "قاع المدينة" الذي يروي قصصًا حقيقية لمجموعة مختارة من سكان جبل الجوفة، لم يكُن لدي أي تصوّر واضح للمنهجية التي سأتبعها. كنت ببساطة أتبع حدسي وأجرّب طريقة جديدة في الكتابة، ولم أكُن أعرف كيف سأُخرج تلك القصص في النهاية.

كنت ببساطة أخبر الناس الذين التقيت بهم في أحياء المنطقة ووافقوا على استقبالي في بيوتهم بأنني أعمل على مشروع كتاب يُدوّن قصصًا من حيواتهم، وبأنني مهتمة بتعلّم الكثير عن الحي وسكانه وتفاعلاتهم

وحياتهم اليومية. شرحت لهم بأنني قد أحتاج إلى زيارتهم بشكل متكرّر إن كان ذلك لا يزعجهم، ولكنني لن أنشر أيا من هذه القصص من دون الحصول على موافقة مسبقة منهم. كان من الضروري أن أؤكد لهم على عودتي لطلب موافقتهم قبل النشر؛ لأنها لم تكن مقابلات صحفية تعتمد أسلوب السؤال والجواب أو تسجيل اللقاءات؛ وذلك لكونها أساليب تُنافي الغرض المرجوّ. أردتُ منهم التصرّف على طبيعتهم من دون خشية وجود جهاز تسجيل، لكن هذه الطريقة قد تعني مشاهدتي لما لا يرغبون الكشف عنه، فوجب عليّ العودة إليهم قبل النشر.

بدأت بزيارة المنزل الأول، وفيه تعرفت على الجارات اللواتي كنّ يجتمعنَ مع بعضهنّ البعض بشكل يومي تقريباً، ثم عرّفتني الجارات على الأقارب والأنسباء والأصدقاء، فبدأت أكوّن شبكة واسعة في المنطقة. بدأ وجودي لا يثير الكثير من الحيرة والاستغراب في المنطقة. حاولتُ التواجد قدر الإمكان وخوض حوارات عادية مع الجالسين، أستمع فيها لما حدث في يومهم، ثم أطرح بعض الأسئلة التي تساعدني على فهم السياق. ربما بدت لهم بعض أسئلتي ساذجة لكنها كانت ضرورية لكي أفهم بالضبط ما يعنيه الحوار، وما تعنيه النكات الملقاة للسخرية من الوضع القائم.

بعد فترة وجيزة، بدأت أتلقى دعوات لحضور المناسبات الاجتماعية، وكنت أحرص على حضورها عندما تسمح ظروفي، وهو ما أتاح لي رؤية كل التفاعلات والشخصيات عن قرب في مواقف متنوّعة، كما حرصت على مرافقتهم أحيانًا في مشاويرهم إلى الدوائر الحكومية والمستشفيات والمراكز الأمنية؛ لأرى أيضًا هذا الجزءَ من حيواتهم المتعلّقَ بحصولهم على الخدمات الأساسية.

لم يكُن لدينا جدول محدد، بل كنا نترك الأحداث تقع أمامنا ونراقب تطورها. أصل في أحد الأيام فأجد غضبَ نساء يتلقين مساعدة شهرية من التنمية الاجتماعية، وقد حان موعد تقديم الأوراق اللازمة لإثبات استحقاقهنّ هذه المساعدة. أدخل فأجد كومة من الأوراق ملقاة على الأرض، ويبدأنَ بشرح كل تفاصيل مشاويرهنّ في الأيام السابقة للحصول على ما يُثبت بأنهنّ لا يملكن قصورًا، ولم يُنشئن أعمالاً تدرّ آلاف الدنانير، وأنهنّ ما زلن كما عهدتهنّ وزارة التنمية الاجتماعية في بيوت بسيطة يُحاولن النجاة. في يوم آخر، أصل لأجد نفس النساء وقد راودتهنّ أحلام بثراء مفاجئ يقلب حيواتهنّ رأسًا على عقب، فيُطلقن العنان للأحلام ويبدأنَ بتصور الانتقال من حال إلى حال، ثم يعُدن إلى أرض الواقع قبل أن أغادر.

في البحث الذي أجريته لكتاب "قاع المدينة" وكتاب آخر اعتمدت فيه الأسلوب نفسه - ولكنه لم يصدر بعد - شهدتُ ما يحدث لبعضنا حين لا يكون هناك سرير خالٍ في مستشفى حكومي، وحين تُسرق حقيبة عاملة وافدة في وضح النهار، وحين يستدين البعض لتأمين زيارة ابن في سجن، وحين تجمع الجارات دينارًا واحدًا من كل بيت لشراء بطانية لسيدة ليس لديها ما يقيها من البرد. يوجد تفاصيل لا يُمكن إلّا للعين أن تراها، فالمتحدّث لا يأتي على ذكرها في الحوار بأي حال من الأحوال؛ مثل تفاصيل ديكور المنزل، والأدعية التي تُزينه كدعاء "قضاء الدين" و"تيسير الحال"، والمسافات التي تكاد تنعدم بين بيوت الحي؛ تفاصيل تساعد في فهم الجوانب النفسية والروحانية الخفية للشخصيات وطبيعة العلاقات التي تربط بينهم وبين جيرانهم. لا يُمكن لشخص آتٍ من خارج المنطقة أن يستوعب حقًّا لماذا يتورط الناس في شجارات لا دخل لهم بها باستثناء الوقوف في صف جيرانهم، إلاّ إذا تواجد بما

يكفي ليفهم ديناميكيات العلاقة بين الجيران في مناطق تولي الأمر أهمية قصوى بخلاف غيرها.

مع مرور الوقت، يبدأ الشخص في فهم الاختلافات في السياق بشكلٍ ملموس، ويراها تتجسّد في تفاصيل الحياة اليومية. هكذا يبدأ باستيعاب اختلاف مفهوم "الخصوصية" من بيئة إلى أخرى؛ فقد يحرص الناس في أحياء معيّنة على إخفاء خصوصيّات بيوتهم عن جيرانهم الذين لا يعرفون عنهم سوى أسمائهم الأولى وربما الأخيرة. بينما لا يكترث غيرهم في مناطق أخرى بكشف تفاصيل قد يحسبها البعض "مخزية" أمام الجيران، كما قد ينشغل الناس في المنطقة الأولى بالحفاظ على الصورة الاجتماعية بينما تنعدم هذه الأهمية لدى سكان المنطقة الثانية الذين يعتبرون بأنهم في الهمّ سواسية، وقس على ذلك من اختلافات لن يستوعبها المرء بحق إلا بعد أن يعايشها.

اتساع الصدر للتناقضات البشرية واختلاف الظروف

تستغرق المقابلات الصحفية التقليدية في العادة ساعات معدودة، وفي بعض الأحيان يرافق الصحفي الشخص الذي يلتقي به لساعات أطول، ولكن غالبًا ما يجري اللقاء في يوم واحد؛ أي بمزاج واحد وظرف مُحدّد، وهو ما ينعكس على الإجابات ومشاعر وأفكار الشخص موضوع المقابلة.

عند مُعايشة الشخص سيختلف الأمر تماماً؛ ستكون مُجبراً على التعامل مع كمّ هائل من المتغيرات التي تنعكس بدورها على مشاعره وأفكاره ومواقفه. سأقدم أمثلة بسيطة لتوضيح الفرق: قد تلتقي شخصا من

"البدون" مثلاً، أي من لا يحملون جنسية أي دولة، ولكنهم يرون بأنهم يجب أن يكونوا أردنيين في حين أن الحكومة لا توافقهم الرأي، فيقول هذا الشخص بأنه لا يفكر بالزواج نهائياً كي لا تتكرّر المأساة مع أطفال لا ذنب لهم. إذا التقيت بهذا الشخص لكتابة تقرير صحفي تقليدي عن القضية فسوف يُعجبك - بالطبع - الاقتباس، لماذا؟ لأنه يُعبّر عن كيفية تدخّل هذه المعضلة في رسم أدق تفاصيل حياته، وقد قاله بالفعل فلا مشكلة في استخدامه. لكن في الحقيقة - وعند العودة بعد أشهر قليلة - ربما ستجد الشخص ذاته يستعدّ للزواج؛ لم يكُن يكذب عند القول بأنه لا يفكر بالزواج نهائيًّا في تلك اللحظة، ولكنه كأي إنسان آخر تبدّل موقفه لأسباب عديدة وأصبح مستعدًّا لخوض المعركة.

لا يتسع التقرير التقليدي لمثل هذه المتغيرات التي هي أقرب إلى الحقيقة من اقتباس واحد.

عند مُعايشة الناس، قد تجد ابنًا لأمّ أردنية يُقسم بأنه لا يتخيل العيش في أي مكان غير بلد والدته، ويسترسل في الحديث عن ذكرياته في المكان وارتباطه به، والتمييز الذي عانى منه بسبب حرمانه من الحصول على الرقم الوطني. لكن الشخص نفسه، عندما تحاوره وهو في حالة مزاجية مختلفة أو تحت تأثير تجربة مريرة، ربما يُقسم بأنه لو امتلك المال الكافي لشراء تذكرة ذهاب بلا عودة، لركب الطائرة وتوجه إلى بلد والده من دون تردد.

هذه التناقضات عادية ومتوقعة، وتُعبّر عنا بصفتنا بشرا نتعلم يوميًّا ونكتشف أشياء جديدة عن ذواتنا، ولكن ما أقصد قوله إن التقارير

الصحفية في العادة لا تلتقط هذه التناقضات، إلا إذا أمضى الصحفي وقتًا أطول نسبيًا مع من يكتب عنهم، وهذا ما لا يحدث إلا في حالات قليلة. تعلمت من هذه التجارب أن الاقتباس الأول في العادة - وإن كان منقولاً بالحرف عن لسان القائل - قد لا يكون الأقرب إلى الواقع؛ ليس فقط لأن الواقع لا يُمكن اختزاله بظرف واحد فقط، وإنما لأن القائل ذاته قد لا يكون واثقًا بما يكفي بالصحفي أو الباحث من المرة الأولى؛ فيكشف ما يوّد كشفه ويخفي ما يُفضّل أن يظلّ سرًّا.

من حق الناس الاحتفاظ بخصوصيتها وأسرارها التي لا تريد البوح بها، ولكنني أقصد هنا إخفاء معلومات تؤثر في السردية؛ مثلا: قد تلتقي بذوي موقوف فقدوا الأمل بإطلاق سراح ابنهم، ولكنهم ما زالوا يحاولون ويروون ما حدث معه لكل من يمكنه المساعدة. قد يكون هذا الموقوف يتعرض لانتهاك حق من حقوقه بالفعل، ولكنهم - في المرة الأولى - يروون ما يعتقدون بأنه سيجعل الشخص المقابل يتعاطف معه من دون تحفظ.

قد يُخفي الأهل حقيقة أن ابنهم يتعاطى المخدرات؛ لأنهم يعتقدون - ولأسباب مشروعة - بأنه لو عُرف عنه هذا الأمر ستقلّ فرص حصوله على المساعدة. وإذا ما عرف الباحث بالصدفة هذه المعلومة سعوا إلى التقليل من شأنها والادّعاء عبر القول مثلاً بأن الأمن عثر على كمية قليلة من المنشطات كان قد جربها في شبابه. لكن لو جلست معهم مدة أطول وبنيت معهم ثقة أكبر لاكتشفت أن لديه مشكلة مزمنة مع التعاطي، وهي مشكلة لا تجعله يستحق ما حدث معه بالطبع، ولكنها توضح كيف تتغير سردية الناس عندما يثقون بأنهم - على الأقل - لن يفقدوا تعاطفك إن قالوا الحقيقة. في تلك اللحظة بالذات، يحتاجون إلى التأكد من أنك لن

تستسهل إطلاق الأحكام عليهم، ولن تنشر قصتهم الكاملة إلا بموافقتهم.

إخفاء مثل هذه المعلومات مفهوم في سياق يريد كثيرون فيه دعم أو مناصرة مَن يعتقدون بأنه "يستحق"، وهذا لا ينطبق برأيهم على من يتعاطى المخدرات أو بحقه أسبقيّات، كأنهم يريدون "قديسين" ليدافعوا عن حقوقهم. قبل أن ألتقي بهذه العائلة، كُنت قد خضت حوارًا مع جمعية تُساعد الغارمين على سداد ديونهم والخروج من السجن للعودة لحياتهم الطبيعية، وكنت أتساءل لمَ اعتذروا عن تقديم المساعدة لشاب مسجون بسبب ديون بسيطة كتلك التي يسددونها، قالوا في حينه بأن من شروطهم ألا يكون في حقه أي قيد متعلق بتعاطي المخدرات؛ فمن الصعب أن يقدموا المساعدة إن كان قد ارتكب هذا الخطأ في أي وقت من حياته. لا تتبنّى هذه الجمعية خطابًا غريبًا عن مجتمعنا؛ فنحن في العادة نميل إلى التعامل مع المتعاطين كمجرمين بدلاً من معاملتهم كمدمنين يحتاجون إلى العلاج ومعاملتهم بما يليق بكرامتهم الإنسانية. حتى هذه "الكرامة الإنسانية" ليس لدينا إجماع على أنها للجميع؛ فلم يخجل مسؤولون أو حتى من نفترض بأنهم على قدر كاف من الوعي في السنوات السابقة من التصريح بأن البعض - ويقصدون بالبعض أصحاب الأسبقيات - لا يجب أن يُعاملوا بمنظور "حقوق الإنسان" لأنهم ببساطة لا يستحقونها برأيهم.

لكل تلك الأسباب، لا أعتقد بأن علينا أن نستغرب عندما يُخفي الناس بعض المعلومات التي يعتقدون بأنها تُضعف من حجة "المظلومية"، بينما لا يجب أن تكون ذات صلة في مجتمع يكفل هذه الحقوق للجميع، وإن ظلت مهمة لتكوين سردية حقيقية، ما يجعل معرفتها واجبًا على من يرغب في تحري الدقة.

إلى جانب التناقضات والسرديات غير المكتملة التي ذكرتها أعلاه، علمتني هذه التجربة بألا أتوقع أن أحصل على نفس القدر من المعلومات في كل مرة وأن أقبل بذلك؛ في بعض الأحيان، قد تصل لتجد الناس في حالة لا تسمح لهم بالحديث، لربما وصلهم للتو خبر وفاة شخص عزيز أو علموا بأن عليهم الرحيل من المنزل لعدم سداد الإيجار أو تشاجروا مع الجيران أو تشاجر أحد أفراد العائلة مع آخر منها أو لربما يمرون بحالة يأس شديد بسبب نقص السيولة في المنزل وهو ما يجعلهم على حافة الانفجار.

في هذه الحالة، قد يُسمح لك بالبقاء إن اعتادوا وجودك والاكتفاء بالصمت، وهو ما أعتبره جزءًا من المشوار في تجربة كهذه، إنها فرصة للاكتفاء بالمراقبة وتدوين الملاحظات المرئية وغير المروية، أي ما يُرى ولا يُقال بصراحة لكنه قد يُعّد مضيعة للوقت في حال رغبتك في إجراء لقاء صحفي سريع. وفي بعض الحالات، قد يكون من الأنسب المغادرة، وعليك أن تقبل بأنك عُدت خالي الوفاض تمامًا.

في هذه المقاربة، تعلّمت شيئاً فشيئاً التمييز بين ما هو حقيقي ولكنه يخضع لتفسيرات متعددة بحسب حالة الشخص المزاجية، وما لم يحدث أساساً. أعرف بأن الكتابة مَهمة شاقة ولكنها تصبح أسهل حين يكون هناك خط سير محدّد للقصة؛ كأن نكتب مثلًا بأن فلانًا قد عانى من مشكلة ما، مشكلة واحدة واضحة وجرّب كل الطرق لحلها فإما أن يكون قد نجح في ذلك أو عجز عن حلها، ونوجه الرسالة المطلوبة من القصة. لكن تعلمت من تجربتي التخلّي عن هذا الخط، ورؤية هذا الشخص يعاني من المشكلة، وما يترتب عليها من مشكلات أخرى يحاول حلها، فينجح تارة ويخفق تارة أخرى. أراه ضحية مرّة ومذنبًا مرات أخرى. تعلّمتُ السير مع الأحداث،

وتركها تقودني حتى وإن انتهى بنا المطاف في مكان مختلف تمامًا عن ذاك الذي تخيّلته على الورق. ليس هذا وحسب، بل تعلمت أيضًا أن أحاول التعبير عن كل المشاعر دون أن أفلترها لمجرد أنها تبدو متناقضة؛ فقد يشعر المرء بالانتماء للمكان ويكرهه في آنٍ واحد، وقد يلعن الفقر ويقبله، وقد لا يبدو معنيًا بأي شيء يخصّ الدين - بل قد يفعل ما يخالف تعاليمه بشكلٍ واضح - ولكنه يفضّل أن يُسجن على أن يقدم شهادة زور. تقبّلتُ أنّ هناك مَن تحدث معي ذات يوم ولكنه لم يعد يرغب في الحديث بعدها، ولا يمكنني الإلحاح والعودة إليه، كما أدركت بأن الجلوس مع أكبر عدد ممكن من الناس ضروري لفهم السياق، ولكن هذا لا يعني بأن كل تلك اللقاءات يجب أن تُترجم إلى قصص متماسكة وقابلة للنشر بالضرورة.

لماذا أكتب قصة لا تخصني؟

لم أقدم هذه التجربة على أنها تجربة صحفية بالمعنى التقليدي؛ لأنني كتبتها بأسلوب أقرب إلى الأدب، ولأنّي اتبعت مقاربةً مختلفة تقوم على المعايشة. لم أسعَ إلى الحصول على ردود من جميع الأطراف كما يُفترض في العُرف الصحفي؛ لم أسع للحصول على رد الحكومة في مسألة توقيف أحدهم، أو ردّ الجهات المعنية على حرمان آخر من الحصول على فرص متكافئة في العمل، على العكس؛ منحتُ مساحة كافية للأشخاص ليساهموا في كتابة قصتهم، وذلك عن طريق استشارتهم في كل ما يرغبون حذفه، وفي كيفية إخفاء هوياتهم، وكلها أمور قد ترفضها بعض المدارس الصحفية.

بعيدًا عن عدم تقديمي هذه القصص على أنها كتابة صحفية، ولكن سؤال "لماذا نكتب قصص أشخاص آخرين؟" يجب أن يُسأل للصحفيين أيضًا:

هل كل صحفي يكتب عمّا يمسّه بشكل شخصي فقط؟ بالتأكيد هذا ليس صحيحًا. الكتابة عمّا لا يتأثر به شخصيًا هو أساس رسالته؛ إذ يفترض أن يكون موضوعيًا ويكتب عمّا يجب أن يُكتب عنه، بغضّ النظر إن كان من الفئة نفسها أم لم يكن. هل كلّ من كتبت عن الغارمات[2] هي منهنّ؟ وهل من تكتب عن العنف ضد المرأة يجب أن تكون بالضرورة من ضحايا العنف؟ نعم، تكتسب الكتابة بُعدًا إضافيًا عندما تكون - في هذا المثال - صادرة عن ناجية تفهم بالضبط ما يعنيه العنف، لكن هذا لا يُقلّل من الكتابات التي تكتب بقلم من لم تتعرّض للعنف، ولكنها أجرت بحثاً يخولها الحديث عن الموضوع، وخصوصًا إن لم تكن تستخدم سلطتها وأدواتها لإسكات النساء اللواتي تعرّضن للعنف. بمعنى آخر، ما أتفهم رفضه تحديدًا هو تصرّف إعلاميات يتمتّعن بحضور واسع في المجتمع، كان بإمكانهنّ استغلال منبرهنّ لإحداث التغيير، ولكن بدلاً من هذا اخترنَ القول "كفى حديثاً عن العنف، فهو ليس بظاهرة منتشرة إلى هذا الحد، فلا تصوّروا مجتمعنا على أنه عنيف وهو ليس كذلك، تعالوا نتحدث عن الإيجابيات".

أكتب لأن الكتابة واجب عندما نمتلك الأدوات. بدأت العمل على مشروعي لكتابة القصص على أمل أن تكون طريقة الكتابة الجديدة وسيلة لتحريك المجتمع وإحداث التغيير على الأمد البعيد. لذلك، من واجبي أن أكتب لأن كل قضية بحاجة إلى مناصرين لا يتأثرون بها بشكل شخصي بالضرورة، ولكنهم يناصرون عدالتها. وأكتب لأن الافتراض بأن مسائل العدالة الاجتماعية لا يجب أن تعنيني لأنني بخير نسبيًّا هو افتراض ساذج

---

[2] الغارمات هنّ النساء اللواتي يترتّب عليهنّ ديون حان وقت سدادها. شاع استخدام هذا المصطلح في الأردن في السنوات العشر الأخيرة للإشارة إلى النساء اللواتي يقترضن من شركات التمويل الصغيرة بسبب ظروفهن المعيشية الصعبة، ويتعثرن في السداد، فينتهي بهن المطاف في السجن. حسب القانون المعدل لقانون التنفيذ لسنة 2022، لا يجوز حبس المدين: "إذا قلّ مجموع الدين المنفذ أو المحكوم به عن خمسة آلاف دينار ما لم يكن بدل إيجار عقار أو حقوق عمالية".

لا يرى من يؤمن به أبعد من أنفه، ولا يدرك بأن الزمن كفيل بجعل هذه المسائل قنابل موقوتة تهدّد السلم المجتمعي الذي يعنيني، ولا يُدرك بأن أي إحساس بالأمان يأتي على حساب الآخرين لا يعوّل عليه. أكتب، وأتمنى أن يمتلك جميع الناس الأدوات المناسبة للكتابة في المستقبل؛ أملاً في أن تكتسب معاركنا زخمًا بتكثيف الأصوات. لم أعرف معركة تضررت من كثرة الأصوات المتحدثة عنها، إلا إن كانت تضرها بشكل آخر، وهذا موضوع منفصل، ولكن الكثرة بحدّ ذاتها لم تكُن يومًا السبب في فشل أي نضال من أجل أي تغيير، بل كانت ضرورة له.

لو عاد بي الزمن إلى الوراء

كانت هذه التجربة من بين الأكثر إثراءً في حياتي على المستويين المهني والشخصي؛ فقد علّمتني ألا أحكم على الناس من منظوري الشخصي أو حتى من منظور القانون فقط، وأن ما يصلح معيارا في مكانٍ ما قد لا يصلح بالضرورة في مكان آخر. تعلّمتُ الفرق بين التعامل مع الناس كـ "قصص" و"حالات" نحتاجهم لإكمال التقرير والتعامل معهم بصفتهم بشرا لهم كرامة ومشاعر وقصة تستحق أن تُروى.

في الحالة الأولى، لا يهمك سوى إنهاء القصة في الموعد المحدد، خصوصًا إن كنت قد أُصبت بالفعل بما يُسمّى "إرهاق التعاطف[3]"؛ حيث من الممكن أن تستمع لحادثة مأساوية ولا تتغيّر ملامح وجهك وتكتفي بتوجيه الأسئلة

[3] "إرهاق التعاطف" أو "السأم من التعاطف" هو ظاهرة نفسية تحدث عندما يشعر الأفراد بالإرهاق وعدم القدرة على التعاطف مع الأزمات الإنسانية المستمرة بسبب كثرة وصعوبة الصور والمعلومات عنها، والتعرض المفرط لها، خاصة في الحيز الرقمي ووسائل التواصل الاجتماعي، مما يؤدي إلى خلق حالة من اللامبالاة أو ضعف الاستجابة تجاهها. (المحرر)

الروتينية: متى حدث ذلك؟ كيف تصرفت؟ بماذا شعرت؟ ولكنك لا تستمع حقاً للإجابات، بل تقيس طولها وحسب؛ لتقرر ما إذا كانت كافية.

في الحالة الثانية، أنت تُدرك أبعاد ما تكتب، وتقدّر كل كلمة تُقال وتسعى قدر الإمكان لكي تكون على قدر الثقة الممنوحة لك، ولكنك تظل بشراً تُصيب وتُخطئ بطبيعة الحال. شخصيًا، يريحني أنني لم أستخدم الأسماء الحقيقية للأشخاص؛ فهذا يُجنّبهم الكثير من الإحراج غير الضروري، وإن كان عليّ الالتزام بالكثير من المحاذير الأخلاقية حتى وإن لم يظهروا بأسمائهم الحقيقية؛ فأنا معنية بحمايتهم وحماية كرامتهم لأكثر من سبب: أولًا، كان هذا ما وعدتهم به حين قُلت بأنني لن أنشر القصة من دون موافقتهم. ثانيًا، لأنني لا أقصد من القصة إدانتهم أو التسبب لهم بالضرر؛ فأنا لم أطرق بابهم للعمل على تحقيق استقصائي يكشف عن جريمة ما، بل لكتابة سيرة حياة، وعلى هذا الأساس كان عليّ أن أتأكد بأن السيدة التي باعت صوتها في الانتخابات - مثلًا - لن تتضرّر من ذكر هذه المعلومة، وذلك لأنني لم أكُن معنية بالكشف عن مصيبة بيع الأصوات ومعاقبة المتورطين بها، بل كنت مهتمة بكشف السياق الكامل لشخصية تعيش في مجتمع قد يدفع بالبعض لبيع أصواتهم لعدم إيمانهم بدورهم من الأساس.

قبل سنوات طويلة، شاهدت فيلمًا وثائقيًا يروي قصة سيدة أردنية أميّة استطاعت تحقيق إنجاز عملي مهم. رافقت الكاميرا السيدة طوال رحلتها، ونقلت لنا حوارات حقيقية بينها وبين زوجها وبقية أفراد عائلتها، ولم يلفتني الحوار آنذاك. لكن شاهدت الوثائقي ثانيةً، وما زلت معجبة به مرة أخرى بعد تجربة البحث التي مررت بها، لكن استغربت تضمُّن الحوار إهانةً للسيدة، وتساءلت لو كنت أملك الجرأة الكافية للإقدام على مثل هذا

الفعل. أعي بأن القائمين على الفيلم قد حصلوا على موافقتها، ولكن هل كان من الصائب الإبقاء على هذا الحوار أم حذفه؟ يتكرّر السؤال في ذهني في مناسبات أخرى؛ مثلاً عندما أجد كتّابًا يُضمّنون كتاباتهم التي تخص آخرين معلومات محرجة ومزعجة ومؤلمة بحقهم، ويستخدمون أسماءهم الحقيقية. لا أدّعي بأنني أفضل من الوقوع في مثل هذا الأمر، بل ما أودّ قوله هو أنني لا أجرؤ على ذلك، وخصوصًا بعد أن بدأت التعامل مع القصص من منظور مختلف. لا شكّ بأن بعض القصص التي كتبتها تُسبّب درجة من الألم لشخصياتها عند قراءتها، ولكن لم أكن لأجرؤ على كتابتها لو كانت بأسماء حقيقية.

علّمتني هذه التجربة الكثير، وأعترف بأنه لو عاد بي الزمن إلى الوراء لحرصت على رسم حدود أوضح؛ لحماية سلامتي الجسدية والنفسية والعاطفية. استفدت من وجود العديد من الأشخاص من المجتمع ذاته الذين كنت أثق بهم ثقة كبيرة لمساندتي في هذا المشوار، ولكنني عانيت من ضغط عاطفي ونفسي لا يُستهان به لكثرة ما تأثرت بكل ما كان يحدث من حولي، ولم أعرف كيف أتوقف عن التفكير بكل ذلك عندما أعود إلى منزلي. لا أريد أن أتحول إلى صنم لا يتأثر بما يجري فيفقد إنسانيته، ولكن أتمنى لو كنت أكثر عقلانية في التعامل مع بعض المواقف.

لو صادفتُ اليوم زميلاً يعمل في الميدان ويتأثر بما يحدث إلى درجة تُفقده التوازن لقدّرت مشاعره، ولكن لنصحته أيضًا بالتروّي ومحاولة عقلنة موقفه لكي يستطيع المساعدة من موقعه. سمعتُ هذه النصيحة كثيراً، ولكن كنتُ أتناساها وأترك نفسي لأصل إلى القعر أحيانًا؛ لأنه من المستحيل أن تقف على مسافة صفر وألاّ تتورّط عاطفيًا وتمضي في طريقك كأن شيئاً لم يكُن.

لهذا، لن أكون ساذجة أو منافقة فأقول لهذا الزميل بأن فصل ذاته عمّا يحدث من حوله ممكن في جميع الأحوال. لكن أنصحه بالمحاولة قدر المستطاع. لا بُدّ أن يُحيط الباحث نفسه بأشخاصٍ يثق بهم في المجتمع الذي يحاول مُعايشته، وآخرون من خارجه ليستشيرهم في كل الأمور، كما يجب أن يُذكّر الناس من حوله بالهدف من عمله وبأنه موجود معهم ويشعر بما يمرّون به، ولكنه لن يستطيع حلّ كل مشاكلهم؛ فيضبط بذلك سقف التوقعات. قد يشهد الباحث قصة يرغب في تتبع كل تفاصيلها، وقد يقوده الفضول إلى أخطار لم تكُن في الحسبان، لذلك من المفيد التفكير قبل الإقدام على أي خطوة وإعلام شخص يثق به بموقعه الجغرافي.

رضيتُ بما تعرّضت له كثمنٍ لما تعلّمته، والذي لا يُعادل شيئا من ألم الناس الذين ما زالوا عالقين في الحلقات المفرغة ذاتها، والذين أدين لهم بالكثير. لكن لو كُتب لي أن أكرّر التجربة فسأسعى إلى رسم الحدود بشكل أفضل لكي لا أستنفد قدراتي قبل الوصول إلى عُشر ما يجب أن أصل إليه!

السيرة الغيرية:
لماذا يتورّط كاتب
في حياة شخص آخر؟

إيمان مرسال

كاتبة وأكاديميّة مصرية وشاعرة، صدر لها عدّة كتب، من بينها: "كيف تلتئم: عن الأمومة وأشباحها» عام 2017، وكتــاب «في أثر عنايات الزيــات» عام 2019، إضافة إلى عدة مجموعات شــعرية من أبرزها "ممرّ معتم يصلح في تعلّم الرقص". تُرجمت مختارات من أعمالها إلى أكثر من عشرين لغة

-١-

من بين أقسام الكتب المختلفة التي يراها زائر مكتبات بيع الكتب في أميركا الشماليّة يوجد قسم مخصص للسيَر الغيريّة. الشيء نفسه يراه زائر مواقع بيع الكتب باللغة الإنجليزية على الإنترنت، حيث تتّسع الأجناس الأدبية لتشمل الأنواع المستقرة من شعر وقصة ورواية، إلى جانب كتب الـ "نون فيكشن" والسير الذاتية والغيرية والمذكرات.

هنا، يجب الإشارة إلى أهمية التخلص من اللَّبس في بعض المسمّيات: السيرة الذاتية "هي السرد الذي يقدمه شخص عن حياته"، والسيرة الغيريّة "كتابة قصة حياة شخص حقيقي بواسطة شخص آخر". في الأولى يتحمل الكاتب مسؤولية ما يقوله لأنها حياته، وقد يعتمد على الذاكرة أحياناً في وصف الأحداث التي مرّ بها واقعيّاً أو داخليّاً من دون أن يكون مطالباً بتوثيق ما يقوله، وقد يختار الأحداث واللحظات التي يشاركها مع القراء بينما يستبعد غيرها. في الثانية، يسرد كاتب قصة حياة شخص حقيقيّ آخر، متناولاً أحداثها، ومدققاً دوافعها، ودلالاتها، وتأثيرها. وسواء كان هذا الشخص ما زال حيّاً أو مات منذ قرون، معروفاً أو مجهولاً، فإن كاتب السيرة مُطالب بالبحث والتوثيق، كما أنه مطالب ببناء وفهم السياق الذي وُلِدَ وعاش فيه الشخص موضوع السيرة؛ أي فهم لحظته التاريخية وكيف شكّلت وعيه وصراعاته واختياراته وإنجازاته وإخفاقاته وأخطاءه.

ربما لهذا تُعتبر السيرة الغيريّة كتابة عابرة للأنواع الأدبية، وعلى الرغم من أن فنّ القصّ في الجوهر منها، إلا أنها تتضمن داخل سردها البحث التاريخي والاجتماعي والنفسي، كما يكون عليها الاتّصاف بالشفافية في تبني أدوات

قراءة مادتها سواء كانت من الأرشيف المؤسسي أو الشخصي، وقد تتضمن حوارات ومقابلات مع مَن يُعدّون شهوداً على ماضي موضوعها. أيضاً، تمتدّ السيرة الغيرية من لحظة ولادة الشخص موضوع الكتابة إلى لحظة كتابتها؛ فمن المتوقع منها أن تستشهد بـ، أو تُعارض أو تتحاور مع ما قيل وكُتب واكتُشف ووُثّق عن هذا الشخص بعد مماته.

في الأدب العالميّ الحديث، يُمكننا رصد ثلاثة أنواع أساسيّة من الشخصيات التي تُتّخذ موضوعا للسيَر:

أولاً: الشخصية القيادية ذات السلطة والقدرة على قيادة الآخرين، وتشمل الآباء المؤسسين وخصوصاً السياسيين والقادة وزعماء الحركات الاجتماعية.

ثانياً: الشخصية التي تنجز إبداعاً وتحوّلاً في حقلها التخصّصي، وهي شخصية الكاتب والفنان والفيلسوف والموسيقي إلخ، ويكون الاهتمام عادة بعملية الإبداع؛ كيف تشكّلت؟ وما سرّ تميزها وحجم تأثيرها على الحقل الذي شاركت بإنتاجها فيه؟

ثالثاً: الشخصية الروحية التي لا تُقاس قيمتها بأي إنجاز ماديّ محدد، بل بقدرتها على تغيير العالم حقاً، وخلق الوعي بفساده، أو الرغبة في تحقيق السلام معه. لكن هناك شبه أنواع أخرى (subgenre) من السيَر التي قد تسرد قصة حياة شخص ليس بسبب إنجازه ولا أهميته في الوعي الجمعي، ولكن بسبب تشابك حياته مع مجتمعه واللحظة التاريخية التي عاش فيها حتى أصبحت قصته باباً للفهم والتأويل. قد يكون موضوع السيرة

هنا شخصاً مجهولاً "ضحية" لممارسة تاريخية عنيفة أو ظالمة مثل تجارة العبيد، أو الهولوكوست، أو سياسة الفصل العنصري ،أو الاستعمار. وقد يكون موضوع السيرة شخصاً موصوماً بإجرامه؛ كأن يكون قاتلاً متسلسلاً، أو محتالاً شهيراً، أو قائد طائفة دينية أو سياسية أو إرهابية وقفت ضد القانون.

بالإضافة إلى كل الأنواع السابقة، هناك بعض السير الغيريّة التي تسعى لقراءة الماضي عبر سرد حياة شخصية شبه مجهولة، مهمشة ومستبعدة من وعي ثقافتها. تتميز هذه السيرة بأنها مدفوعة بسؤال كاتبها الشخصيّ عن أسباب الاستبعاد، ليس بهدف تحويل موضوع السيرة إلى ضحية يجب إرجاع حقها ولا لرغبةٍ في إضافتها إلى المتن العام للثقافة التي همّشتها، بل لتأويل إستراتيجيات الاستبعاد في لحظة تاريخية معينة أو في حقل سياسي أو إبداعي محدّد.

-٢-

لماذا يتورط كاتب في حياة شخص آخر سواء كان حيّاً أو ميّتاً لدرجة أن يكتب سيرته؟

يدفع هذا السؤال إلى التفكير في وضعيّة كاتب السيرة الغيريّة: كيف نحدد دوافعه لكتابتها؟ وعلاقته بموضوعها وتأثير وضعيته وأسئلته على ما يكتبه؟ يختلف كُتّاب السيرة من حيث علاقتهم بهذا الجنس الأدبي.

النوع الأول، ما يُمكن تسميته "كاتب سيرة مُتخصّص" يُكرّس حياته لكتابة

سيرة عَلَم أو أكثر، مثل الكاتب الأمريكي الشهير روبرت كارو [3](Robert Caro) حيث ينتقي مَن يكتب عنه، وماذا يكتب، وأين يجد مادّته، ويعرف شريحة القرّاء المستهدفة بكتابه. هو يعمل ضمن فريق من المتخصّصين في موضوعه، وقد يكتب أكثر من سيرة لنفس الشخص لأنه اكتشف مادة جديدة، أو بُعداً جديداً يجعل السيرة تساهم في نقاش سياسيّ أو اجتماعيّ آني[4].

النوع الثاني، هو كاتب سيرة محترف تُكلّفه عادة مؤسسة أو دار نشر أو جامعة أو حزب سياسي أو غيرها، وذلك لكتابة سيرة أحد الأعلام في أي حقل من الحقول المعرفية أو الاجتماعية. في هذه الحالة، يتمّ تمويل مشروع البحث منذ البداية، عبر تغطية نفقات التفرّغ والسفر والمساعدة في الحصول على المادة الأرشيفية من وثائق ومراسلات ويوميات إن وُجدت. عادة ما يتّصف هذا النوع من الكُتّاب بقدراتهم الصحفية الاستقصائية وبالمهنية العالية، ولا يُتوقّع منهم نص أدبي تجريبي، بل لغة سهلة تصل إلى قارئ عام مُهتمّ بموضوع السيرة. يستطيع هذا الصحفي – بصفته كاتبَ سيرة – التنقّل بين حقول معرفية مختلفة؛ فقد يكون كتابه الأول عن سياسي أو فنان، بينما يكون كتابه التالي عن قاتل متسلسل. ربما لا تتوفر مؤسسات في عالمنا العربي تُشجّع على مثل هذا النوع من السيَر،

---

[3] صحفي ومؤرخ أمريكي بارز، وُلد عام 1935، اشتهر بأعماله البحثية الدقيقة والمعمّقة في السيرة السياسية. من أبرز مؤلفاته سلسلة "The Years of Lyndon Johnson" التي تُعد من أهم السير الذاتية السياسية في الأدب الأمريكي، حيث يدرس فيها السلطة وتأثيرها على الأفراد والمجتمعات من خلال سيرة الرئيس الأمريكي ليندون جونسون. كما ألّف كتاب "The Power Broker" عن روبرت موزس، وهو عمل كلاسيكي في كشف كيفية ممارسة السلطة خارج الأطر الديمقراطية الرسمية. يتميّز أسلوب كارو بالدقّة الوثائقية والسرد الغني، وقد فاز بعدة جوائز منها جائزة بوليتزر.

[4] على سبيل المثال، كتب روبرت كارو سيرة ليندون بينز جونسون (١٩٠٨ – ١٩٧٣) في آلاف الصفحات صدرت بين ١٩٨٢ و٢٠١٢، وما يزال يعمل على الجزء الخامس والأخير من هذه السيرة. حصل الجزء الثالث من هذه السيرة على جائزة بوليتزر في أدب السيرة سنة ٢٠٠٣ ضمن جوائز أخرى كثيرة.

ولكن يوجد تجارب فردية عدة لصحفيين متخصّصين في المجال الفني، قاموا بكتابة سيَر لفنانين مختلفين، تكون عادة خفيفة ومعتمدة بالأساس على الأرشيف الصحفي من دون أسئلة أو تحرير لغوي أو تدقيق تاريخي للمعلومات[5].

النوع الثالث، هو كاتب يختار موضوعه بنفسه ويكون لديه من الدوافع الأخلاقية أو الثقافية أو الشخصية ما يجعله يشرع في عمله لأنه ضروري وملحّ ومُرتبط بأسئلته الآنيّة الأكبر التي قد يصل إليها عبر انخراطه في مشروع سياسي أو أكاديمي أو ثقافيّ. هذا النوع موجود في كل الثقافات، ولكنه مَن أنتج أهم السير الغيرية في أدبنا العربي الحديث ومنها على سبيل المثال كتاب "رجال ريّا وسكينة" للكاتب المصريّ صلاح عيسى[6].

أحيانا ما يكون الكاتب قريباً ومشغولاً بموضوعه ثم يجد - للحظ الجيد - تكليفاً رمزيّاً أو تشجيعاً من مجموعة أكاديمية؛ مثال ذلك ما حدث مع الأكاديمية إليزابيث يونج بيرول التي كانت طالبة دكتوراه في "نيو سكول-نيويورك" تحت إشراف حنّة أرندت من عام ١٩٦٨ إلى ١٩٧٤، بعد تخرّج بيرول بعام واحد أي في عام ١٩٧٥، رحلت آرندت وتجمّع أفراد أسرتها

---

[5] مثال ذلك السيَر التي قام بكتابتها الصحفي الفني أيمن الحكيم؛ فقد أصدر عدة كتب تتناول قصص حياة بليغ حمدي، وهند رستم، ونادية لطفي. تأخذ هذه السير شكل تجميع مقالات وحوارات من الصحافة دون تدقيق لسياق ومحتوى المادة. ليس هناك سؤال محدد يطرحه الكاتب على مادته، وبالتالي تأخذ السيرة شكل حكايات عشوائية ومتجاورة دون رابط بينها إلا أنها تخص شخص صاحب السيرة. وتُصنِّف دور النشر والمراجعات الصحفية هذه الكتب على أنها "سير ذاتية"رغم أن طموحها المجهض هو أن تقدم "سيَر غيريّة".

[6] يذكر صلاح عيسى أنه كان يبحث في فهرس ملفات القضايا السياسيّة في "المركز القومي للدراسات القضائية"عن ملف قضية الحزب الشيوعي المصري الأول الذي تأسس في العشرينيات، حين وقعت عيناه على ملف الجناية ٢٣ لسنة ١٩٢٠ قسم شرطة اللبان المتهم فيها ريّا وسكينة. ويذكر أن الفضول الذي جعله بعد ذلك يقرأ هذا الملف تطور إلى أسئلة عن تناقضات قصة القاتلتين وغموض بعض أحداثها، وهو ما دفعه لكتابة هذه السيرة. انظر: عيسى، صلاح. ٢٠٠٢ رجال ريا وسكينة سيرة سياسية واجتماعية – حكايات من دفتر الوطن. دار الأحمدي للنشر، القاهرة. ص ٢٨ و٢٩.

وزملاؤها وتلاميذها من كل بقاع الأرض للاحتفال بمسيرتها. أثناء الحفل بدأ التساؤل عمّن يمكنه القيام بمهمة كتابة سيرتها الشخصية والفلسفية منذ ولادتها وحتى هروبها من الصعود النازي في ألمانيا، مروراً بمنفاها الأول في فرنسا ثم لجوئها إلى أمريكا في عام ١٩٤١. إن مهمة كتابة سيرة كهذه لا تتطلب فقط معرفة عمل آرندت بصفتها واحدة من أهم فلاسفة القرن العشرين، بل معرفة عمل أقرانها من الفلاسفة الآخرين مثل مارتن هايدجر ووالتر بينجامين، والقدرة على البحث في وثائق باللغة الألمانية والفرنسية إلى جانب الإنجليزية، وتتبّع خطواتها في نيويورك والتحولات السياسية والفكرية والشخصية التي مرّت بها.

لقد وقع اختيار ما تسميه بيرول بـ "قبيلة آرندت" عليها لتقوم بهذه المهمة وواصل أفراد هذه القبيلة مدّ بيرول بأرشيف آرندت الشخصي من وثائق وصور ويوميات ومراسلات، كما قاموا أيضاً بدعم مشروعها عبر قراءة مسوداته والمساعدة في تدقيق معلوماته وتصحيح ترجماته لنصوص من لغات مختلفة[7]. تُعتبر سيرة حنّة آرندت التي كتبتها بيرول واحدة من أهم السيَر الغيرية الصادرة في القرن العشرين؛ تتوافر فيها شروط معرفة الحقل الفلسفي المعرفي الذي تنتمي له صاحبة السيرة، وقراءة حياتها عبر الأرشيف الشخصي والجمعي، وجهد أكاديميين وأصدقاء دارسين لعملها الضخم وشاهدين على مسار حياتها. الأكثر من ذلك، والذي يمدّ كتابة السيرة بطاقتها الروحية والجمالية هي العلاقة الخاصة بين الكاتب وموضوعه.

---

[7] Young-Bruehl, Elisabeth. 1982. For love of the world : a biography of Hannah Arendt. New Haven: Yale University Press. P.XV.

انظر أيضاً

Berger, Peter L. "A Woman of This Century: HANNAH ARENDT For Love of the World. By Elisabeth Young-Bruehl. New York Times, 1982, p.359
https://www.proquest.com/hnpnewyorktimes/docview/121887937/abstract/E3333E4E4D9A4769PQ/1 Accessed 27 March 2022

في كتابها "موضوع البيوجرافي: التحليل النفسي، النسويّة، وكتابة حياة النساء" تصف إليزابيث بيرول ما تعلّمتهُ من كتابتها لسيرتيْن مميّزتيْن؛ سيرة حنّة أرندت، وسيرة آنّا فرويد. تقول بيرول إن سرد قصة حياة شخص آخر يعتمد على "الشعور برغبات هذا الشخص الآخر واتخاذ ذلك طريقةً للمقارنة. وبشكل أكثر دقة، يعتمد على وعي كاتب السيرة بالدور الذي يلعبه الشخص موضوع السيرة في حياة الكاتب النفسية". تقول بيرول: "الكليشيه الذي يَقصُر تعاطفك مع الشخص موضوع السيرة على أن تتخيل نفسك مكانه يبدو لي خطأ فادحاً؛ التعاطف يتضمّن أن تضع الآخر داخلك، أن تصبح شخصَ الآخر، لكن من دون أن تُذيب هذا الآخر في داخلك، من دون أن تهضمه. أنت حامِلٌ نفسيًّا، لست حاملًا بحياة محتملة لشخص، بل بحياة كاملة - بشخص له تاريخ. لهذا يعيش الشخص موضوع السيرة في داخلك، وهذا يعني أن عليك الامتنان لدوره في تكوينك. هذا الوضع هو ما يُعطيك القدرة على أن تُفرّق بين ما تريد لنفسك، والذي قد تكون تبحث عنه في هذه الشخصية، وبين ما تريده هي لنفسها. بالطبع، هي لم تطلب منك شيئاً لنفسها، مع ذلك فقد تعطيها ما تريد بكتابة السيرة عنها"[8].

لا تقدّم بيرول في كتابها تعريفاً نهائيّاً لما يجب أن تكون عليه العلاقة بين كاتب السيرة وموضوعها، لكنها تدفعنا عبر سرد تجربتها إلى التفكير في علاقتنا بمن نكتب سيرتهم. وإذا كان الحَمْل بحياة كاملة هو المجاز الذي عبّر عمّا تريد قوله، فإن كل كاتب سيرة عليه أن يفكر في مجازه الخاص الذي يمكن أن يصف به علاقته بموضوعه، وأن يكون مجازه أصيلاً ومرتبطاً بدوافع وخطوات وعوائق واكتشافات السيرة التي يكتبها.

---

[8] Young-Bruehl, Elisabeth. 2000. Subject to biography psychoanalysis, feminism, and writing women's lives. Cambridge: Harvard University Press.p.22

قد يبدو ما أنتجته الثقافة العربية الحديثة من سيَر غيريّة قليلاً بالمقارنة مع بعض الثقافات الأخرى، وهو موضوع يستحقّ الدراسة في سياق آخر. لكن الأهم هنا هو في أن نتذكر مركزيّة فن التراجم في التراث العربي، وهو فنّ ساعد على إنتاج المعرفة، واستُخدِم في توثيق الأحداث التاريخية ودعم المعتقدات الدينية والتحيّزات السياسية، كما كان أداةً للتقييم والنقد الأدبي. من هذه الكتابات النثرية المتنوعة على سبيل المثال لا الحصر: سير الرسول عليه السلام والخلفاء الراشدين والخلفاء، وكتب الطبقات مثل "طبقات فحول الشعراء" لمحمد بن سلام الجمحي (ت. ٢٣٢هـ - ٧٥٦م)، و"طبقات الصوفية" لأبي عبد الرحمن السلمي النيسابوري (ت. ٤١٢هـ - ١٠٢١م)، و"حلية الأولياء وطبقات الأصفياء" للأصفهاني (ت ٤٣٠هـ - ٩٦٧م)، وكتب الأخبار، والوفيّات، والأعيان، والأعلام. من ناحية أخرى، أنتجت الثقافة العربية الكثير من السيَر الشعبية التي ظلت تتطوّر شفويّاً على مر قرون، وحظي بعضها بالتدوين، مثل قصة الزير سالم التي لا تقتصر على كونها سيرة للبطل الذي تحمل اسمه، بل سيرة لأنظمة القبائل العربية وأنسابها وصراعاتها وحروبها منذ ما قبل الإسلام. ورغم أن السيَر الشعبية ليس لها مؤلف واحد، ويمتزج فيها التاريخي بالأسطوري، والنثري بالشعري والملحميّ، إلا أنها ما زلت مصدراً هاماً للمتعة وللدراسات الإثنوغرافية والأدبية على حد سواء[9].

أما عن مواضيع السيَر الغيريّة في متن الثقافة العربية الحديثة، فتقتصر - إلى حد كبير - على شخصيات حظيت وما زالت بالأهمية والإنجاز والشهرة. قد

[9] انظر على سبيل المثال الدراسة الإثنوغرافية واللغوية لسيرة الزير سالم: الحكيم، شوقي. ٢٠١٧. الزير سالم أبو ليلى المهلهل. مؤسسة هنداوي.

يبرّر هذا محدودية عدد السيَر التي تُنتجها ثقافتنا بشكل عام، والمركزيّة التي تنالها الرواية في المشهد الأدبي من حيث النشر والمقروئية والجوائز. وهذا يجعلنا نتساءل إذا كانت ثقافتنا تُسائل متنها العام المستقرّ بالشكل الكافي أم لا. يُمثّل كتاب "رجال ريّا وسكينة " لصلاح عيسى تجربة فريدة في مساءلة المتن الثقافي العام؛ فهو لا يكتب سيرة لشخصيات عظيمة ولا مجهولة، بل يحكي قصة مجرمتين معتمداً على صورتهما في قصص الرعب الشعبية واعترافاتهما في محاضر البوليس وأشكال تناول جريمتهما في الصحافة والسينما وفي كلّ ما يُمكن أن يقدمه الأرشيف. وجود كلمة "سيرة" أيضاً يُحيلنا إلى معارضة كتاب عيسى لكتابة سير الأيقونات والشخصيات المهمة التي عادة ما تكون موضوعاً للكتابة.

ريا وسكينة امرأتان ارتكبتا جرائم قتل متسلسلة، وهذا يجعل السيرة تتقاطع في الكتاب مع نوع أدبي آخر وهو القصص البوليسية وذلك في تتبعها للغموض ولاكتشاف دوافع الجريمة. لكن عيسى لا يتعامل مع القاتلتين باعتبارهما شراً مطلقاً، وليس هدفه إثبات الجرائم مثل رجال البوليس، ولا اكتشاف موعظة أخلاقية من الحكاية كما فعل كثيرون غيره. بل يُحاول أن يرى طبقة ريا وسكينة المعدَمة وهي تصارع لتبقى على وجه الحياة أثناء الحرب العالمية الأولى. يتساءل عن هاتين الشخصيتين وواقعهما التاريخي والاجتماعي وهذا ما يأخذه في رحلة بحث عن تاريخ الهجرات الداخلية من صعيد مصر إلى مدن مثل طنطا والإسكندرية، ويجعلنا نتخيل التغرّب والفقر الذي دفع هؤلاء الفقيرات إلى ممارسة البغاء العلني، ثم تغيير نشاطهنّ إلى البغاء السرّي ليهربنَ من سلطة الدولة وضرائبها وفحوصها الطبيّة الدورية. يحكي عيسى - عبر ريّا وسكينة - سيرة قاتلتين داخل الشبكة الاجتماعية المعقدة التي أحاطت بهما.

يعتمد عمل عيسى هنا على الأرشيف: أوراق البوليس الذي تلقّى بلاغات باختفاء نساء، وأوراق التحقيق مع المتّهمين، والمُرافعات القانونية أمام المحكمة والحكم النهائي وردود الفعل حوله. لكنه أيضاً يعود إلى أرشيف الجرائد وطرق تناولها للأمر، وللأرشيف الشفوي الذي يتضمن حكايات مجهولين أدلوا بدلوهم أثناء التحقيقات. في هذا يُحضر عيسى إلى الحكاية لغة الماضي ممثّلةً في نبرة الخطاب القانوني، والصحفي، والشفوي الذي استخدمه كل أبطال الحكاية في إنكارهم للجريمة ومحاولتهم تضليل العدالة ثم باعترافاتهم وندمهم. ما يعطي سيرةَ ريّا وسكينة جمالَها ليس فقط طريقة القراءة والتحليل، بل أهمية تجاور وتقاطع كل هذه النبرات واللغات للإمساك باللحظة التاريخية. اللغة بالنسبة لكاتب السيرة ليست مجرد أداة للقراءة وللتأويل وحسب، فهي أيضاً أداة للتخيّل والتخييل.

-٤-

يحظى البحث في الأرشيف العام/المؤسسي بأهمية مركزية في كتابة السيرة الغيريّة؛ فسواء كان موضوع السيرة شخصية مجهولة تماماً أو معروفة فقط في حقلها (العلوم أو الاقتصاد على سبيل المثال)، أو حاضرة بقوة في الضمير الجمعي، على كاتب السيرة أن يعود إلى الأرشيف بحثاً عن مادة أو توثيقاً أو نقضاً لها. يواجه الباحث في عالمنا العربي عوائق لا نهاية لها في بحثه داخل الأرشيف المؤسسي، وهو موضوع يجب أن يعي به كل باحث منذ البداية حتى لا يصيبه الإحباط. لحسن الحظ هناك اهتمام في السنوات الأخيرة بمناقشة هذه العوائق لهذا سأكتفي بالإشارة إلى بعضها[10].

[10] يمكن للقارئ قراءة أكثر من مقالة وحوار ومشاهدة أكثر من محاضرة في مدونة الأكاديمي خالد فهمي حيث يناقش العوائق المختلفة التي يواجهها الباحثون في الأرشيف الوطني المصري https://khaledfahmy.org/en/

بمجرد أن يصل كاتب السيرة إلى مادة تخص موضوعه في الأرشيف، عليه أن يواجه كيفية قراءتها: ماذا تقول هذه المادة؟ مَن كتبها أو سجلها؟ ولماذا؟ وماذا ينقصها؟ جسد الأرشيف ليس جسداً طبيعيّاً؛ لقد قامت مؤسسات شتّى بخلقه وترتيبه وتصنيفه وعرضه أو إخفاء بعض وثائقه لأسباب تخصّها، والشكل الذي نجده عليه ليس ملامحه بل هويّته. إنه يحتوي على أدلّة، ولكنها قد تكون أدلّة مشوهّة، أو ناقصة، أو معبّرة عمّن كان له صوت أو سُلطة. التساؤل عن وضعها وترتيبها هكذا وإعادة التفكير في لحظة خلقها قد يساعد في التقليل من تشوّهها؛ كأنّ الذاهب إلى الأرشيف عليه أن يُعيد ترتيب ما يجده من مادة طبقاً لسؤاله. إنها أول خطوة في التفاوض مع الماضي[11].

كتبت سيديا هارتمان "قراءة الأرشيف تعني دخول المشرحة[12]"، وكانت بهذا تقصد كل الموت والصمت الذي واجهته أثناء بحثها في آثار تجارة العبيد الأطلسية من القرن الخامس عشر إلى القرن العشرين. لقد كان عليها لكي تسرد تاريخ حياة الأسرى على متن سفن تجارة العبيد، أن تقرأ سجلات السفن في خضم المحيط، ويوميات القبطان والقساوسة والضباط والتجار وأوراق المحاكمات ووسائل التعذيب وطقوسه وقوائم الوفيّات وخطابات من ناهضوا العبوديّة.

لم تجد هارتمان الأسرى في انتظارها كي يتكلموا معها بلسانهم عمّا عانوه، بل أنصتت لما لم يستطيعوا قولَه، خصوصاً في وثائق من اعتبروا هؤلاء الأسرى

---

[11] السابق، ص ٩.

[12] Hartman, Saidiya V. 2008. Lose your mother: a journey along the Atlantic slave route. New York: Farrar, Straus & Giroux. P.17.

مجرّد تجارة؛ أي أنها أنقذت خيوط قصة الضحايا مِن أرشيف مَن جعلهم ضحايا. بالطبع كان عليها أن تتخيّل، أن تملأ الثغرات وتكمل القصص التي لم يملأها ولم ينتبه لها أحد[13].

مثال هارتمان قد يضيء ما أودّ قوله هنا، وهو أن العثور على مادة من الأرشيف ليس ضمانة لفهم قصة أو القدرة على تأويلها أو سردها؛ فبالإضافة لهواة الأرشيف الذين يحتفون به وكأن فيه الإجابات عن كل أسئلتهم، هناك من يذهب إلى الأرشيف باعتباره مادة مجانيّة يمكن أن ينتقي منها شيئاً ثميناً ومسليّاً، بعضهم يذهب إلى هناك لتأكيد قناعات مسبقة، للبحث عن براهين، لتأكيد جملة سياسية أو اجتماعية أو دينيّة موجودة بالفعل. تخيّل شخصاً يذهب إلى الأرشيف من دون سؤال! إنه كالذاهب إلى المشرحة لتزجية الوقت، قد يأخذ سيلفي مع جثة، قد يحكي لنا قصتها التي عرفها من الوثائق والأوراق الصفراء، وقد لا ينتبه في كل ذلك إلى تعطّل فعل القراءة والتأويل لصالح ما تَصوَّرَه مصداقيةً مطلقةً للأرشيف.

قد يكون سؤال الباحث في الأرشيف غامضاً في البداية؛ لنتخيّل أنه مشغول بشخصية ما، وكل ما لديه هو رغبة في فهم غموض أو تناقض أو فجوة في حياة هذه الشخصية أو سياقها أو أشكال التأريخ لها. هذا يعني أن سؤال كاتب السيرة ينبثق في الحاضر، من الآن وهنا، ولكن تنقصه اللغة اللازمة لبلورته. كل سؤال له تاريخ، ومن الضروريّ تتبع أثره وفهم اللحظات السابقة التي أوشك فيها أن يُقال، وأن نفهم كنه السُّلطة التي قطعت

[13] Mersal, Iman. 2022. Archives and Crimes. Translated by Robin Moger. Berlin: Archive Books and Kayfa Ta. P.8.

عليه الطريق. أعني بتتبع الأثر الذي ذكرته للتو "الأثرَ" عند جاك دريدا الذي لا يعتبره أصلا ولا حقيقة واحدة، بل تكويناً وتكراراً يحافظ على المعنى. هو ليس "الأصل" ولكنه أثر أصليّ[14] وعلامة هنا والآن لشيء آخر، لشيء ليس هنا وليس الآن، ومعناه الكامل هو الإشارة إلى ما وراءه[15]. تتبع الأثر في الأرشيف ليس هدفه البحث عن الحقيقة (رجل البوليس المخلص يقوم بذلك)، ولا هدفه إعطاء صوت لمن لا صوت لهم (من المهم أن نفكر أن هذا الطموح قد يكون سلطويّاً في العمق، وكثيراً ما ينتهي بالحديث باسم من لا صوت لهم). الأكثر من ذلك، وجود هدف مهما كان نبيلاً في ذهن كاتب السيرة - قبل الشروع في كتابتها - قد يشكل تصوراً مسبقاً يصم كل ما يكتبه بالجاهزية، ويحرمه من الوقوف أمام التناقضات والفجوات في القصة التي يسردها، أو - على الأقل – يحرمه ذلك من طرح أسئلة جديدة على موضوعه رغبةً في ردم الفجوات لا تأمّلها.

-٥-

عادة ما يحلم كاتب السيرة بالوصول إلى "الكنز"؛ أعني الأرشيف الشخصيّ الكامل لَمن يكتب عنه. ما يجعل هذا الحلم مستحيلاً هو أنه يتطلب وجوداً حقيقياً لهذا الأرشيف في مكان ما، ثم النجاح في الوصول إليه، وبعد ذلك قراءته وتحليله ثم تأويله وتضمينه بشكل فعّال داخل السرد. تُعرّف الباحثة سو ماكميش الأرشيف الشخصيّ الكامل بأنه الذي عاش صاحبه بما يكفي ليتراكم أرشيفه عبر الوقت، وتتقاطع حياته مع أحداث

---

[14] Derrida, Jacques. 1998. Of grammatology. Baltimore: Johns Hopkins University. P.61.

[15] السابق، ص ٦١

وحياة آخرين، وتكون هناك تحولات وأفعال استحقت الرصد أو التوثيق في حياته[16]. يمكن أن نضيف إلى ذلك، توفّر وعي صاحب الأرشيف أو من يحيطون به أو مؤسسة ما بأهمية الحفاظ على هذا الأرشيف. وعادةً ما يُفاجأ الباحث العربيّ بندرة وجود هذا الوعي؛ فلا يوجد نموذج واحد في الثقافة العربية الحديثة يُشبه "قبيلة" حنّة آرندت في حفظ وجمع أرشيفها ومساعدة بيرول في كتابة سيرتها. ويمكن الرجوع إلى كتاب محمد شعير "سيرة الرواية المحرّمة"، لنرى كيف توزّع أرشيف نجيب محفوظ ومسوداته بين القبائل[17]. صاحب الأرشيف يراكم حكايات ويوميات ورسائل وقصاصات ومسودات، لكن كل هذا قد يُصبح عبئاً على مَن يرثونه؛ كونه يشغل حيّزاً من المكان ومن الذاكرة، وهناك احتمالات وأشكال ودوافع كثيرة للتخلص منه وتدميره.

لا يستمدّ الأرشيف الشخصيّ أهميته من إنجاز صاحبه وحسب، بل من قدرة مادته على مراجعة تصوراتنا عن صاحبه وتعميقها، أو من قدرته على تطوير أسئلتنا أو إلهامنا الطريقَ السرديَّ الذي نمشي فيه من أجل سرد قصته. أحياناً تأتي أهمية الأرشيف الشخصيّ من الصراعات التي تنشأ بين من يريدون فرض سلطتهم عليه، وبالتالي يجب أن تنضم هذه الصراعات - بكل دلالاتها - إلى الأرشيف نفسه؛ إنها جزء من تاريخه. يوجد - على سبيل المثال - أكثر من اثنتي عشرة سيرة للشاعرة الأمريكية سيلفيا بلاث (١٩٣٢-١٩٦٣) كأنها ليست شخصاً واحداً بل أشخاص يمرون ببعض العتبات الرئيسيّة في القصة، ولكن تتعدد صورهم أيضاً بعدد من كتبوها.

---

[16] McKemmish, Sue. 1996. "Evidence of me. -Article originally published in Archives and Manuscripts". Australian Library Journal, The. 45 (3): 174-187.

[17] شعير، محمد. ٢٠١٨. أولاد حارتنا: سيرة الرواية المحرّمة. دار العين، القاهرة.

قراءة بعض سيَر بلاث يجعلنا ننتبه إلى الوصاية التي يتعرض لها أرشيف الموتى الذي نحلم بقراءته؛ فبعد انتحار الشاعرة أصبح زوجها السابق الشاعر الإنجليزي تيد هيوز وصيّاً على ممتلكاتها، وقام بنشر عدة كتب لها، لكن جاء من كتّاب سيرتها مَن شكّك في طبيعة هذا الأرشيف وأشار إلى اختفاء بعض أجزائه، وتساءل عن طريقة هيوز في تحرير نصوصه. لقد اعترف هيوز نفسه بحرق آخر "كُرّاس" من يوميات بلاث حتى يحمي أطفالهما من معرفة معاناة أمّهما مع المرض النفسي. هذا يجعلنا نفكر أن للوصاية أسبابا نبيلة أحياناً، ولكنه يؤكد في الوقت نفسه أن ما يصل إلينا من الشخص الميت ليس "أرشيفه الكامل" بل ما سمحت به سلطةٌ ما بالبقاء، أو ما سمحت وصاية ما بجعله متاحاً للآخرين. قد تتحكم الوصاية الأُسرية في أرشيف أحد أفرادها بعد موته، يحدث هذا في ثقافات عديدة، ولكن ربما هناك درجات في حجم الوصاية ونوعها حسب التقاليد المجتمعيّة والدينية (مفاهيم مثل الخصوصيّة أو حُرمة الموتى أو سُمعة الأسرة)، والحقل الذي يوجد فيه صاحب الأرشيف (عالم، فنان، سياسيّ، خارج على القانون... إلخ)، وحسب نوعه (رجل أم امرأة)، وحسب طموح أسرته من وراء إتاحة أرشيفه لغرباء أو حجبه، وأيضاً حسب قدرة الباحث على التواصل مع من يملكون الأرشيف وكسب ثقتهم.

في تجربتي البحثية أثناء عملي على كتابي "في أثر عنايات الزيّات" (١٩٣٦-١٩٦٣) واجهت غياب اسمها في كتب النقد الأدبي وقوائم كتابة المرأة العربية، واستبعادها من الأرشيف المؤسسي الذي لم يُدرك وجودها، أو أدركه مؤقتًا عندما تردد اسمها في عام ١٩٦٧ بعد صدور روايتها الوحيدة "الحب والصمت"، ثم أهملها بعد ذلك. كان عليّ أن أذهب إلى متاهة الأرشيفات الشخصية الموازية بكل عتمتها وتحفظها وتعقيداتها. عندما تأكدت أن أرشيف عنايات

الشخصيّ دُمّر كاملاً إلاّ عدة أوراق وصور نجت لأسباب مختلفة، بدا لي هذا مثل كارثة في أول الأمر، لكن غياب هذا الأرشيف هو ما جعلني أتتبّع أثر ما تمّ طمسه. اكتشفتُ أهمية البحث في هوامش نجت من سيطرة المؤسسات والأسرة والأصدقاء؛ في جغرافيا دارسة عاشت وماتت فيها، في الشارع والمقبرة والمدرسة والعمل. أصبح كل ما تقاطع مع حياتها مهماً وكاشفاً لقصتها؛ مثل مؤسسات نشر الأدب في ستينيات مصر، وقوانين الأحوال الشخصية التي تخص الطلاق والحضانة، والمصحة التي أقامت فيها وطرق علاج الاكتئاب أثناء ذلك. بدت لي الحوارات مع من عرفوها ملهمة؛ ليس لأنهم يقولون الحقيقة ولا لأنهم يزيفونها بل لأن ما يقولونه هو ما وصلوا إليه بعد رحلة استمرّت أكثر من خمسين عاماً بعد موتها. إنه ما بقي في الذاكرة، ما تصالحوا معه بعد ألم في رحلة حياتهم نفسها.

قد يكون توسيع مفهومنا لما نسميه "الأرشيف" ضرورة عندما يكون من نبحث عنه مهمّشاً أو مُستبعداً أو مجهولاً. لكن ماذا لو تخيّلنا كاتب سيرة يُحالفه الحظ، ويصل إلى الأرشيف الشخصيّ الكامل لَمن يكتب عنه، هل يُمثل هذا نهاية سعيدة أم بداية لرحلة لا نعرف كيف ستنتهي؟

الأرشيف الشخصي ليس مصدراً للحقيقة، بل مادة للقراءة والفهم والتأويل. ما كتبه الشخص الغائب في مراسلاته ومسوّداته ويومياته هو ما تصوَّره عن نفسه، ما مرّ به طبقاً لوعيه في مواجهة شروط لحظته التاريخية، إنه سجل رغباته وآلامه وأوهامه أيضاً. يجب أن نشعر أمام أرشيف شخص ميّت بالمسؤولية الأخلاقية؛ فعلى الرغم من مشروعية سؤالنا عنه وجهدنا في فهمه إلا أننا نظل غرباء، وعلينا احترام خصوصيّته على قدر المستطاع. كتابة السيرة ليست البحث عن سرّ أو فضيحة لا يعلمها أحد، وليست

الحديث باسم الغائب وفرض تصوراتنا عنه أو عليه، وليست عرضاً لحياته في متحف، بل هي إرجاعه للحياة كأنه يتحدث إلينا من الماضي، وكأننا في حاجة للحوار معه وإلا ما قطعنا هذه الرحلة إليه. عندما يكون هناك احتياج ملحّ لأن نحكي قصة هذا الشخص بالذات فهذا يعني أنه أصبح أحد هواجسنا، يعني أننا نريد فهمه أو أن فهمه سيساعدنا على إيجاد معنى لأسئلتنا التي دارت حوله؛ كأنه مطلوب من كاتب السيرة أن يُنصت لصوت شخص غائب ويضع نفسه مكانه أحياناً ويحمله في داخله، يُحاوره ولا يقبل كل ما يهمس به، بل يُشكّك فيه أحياناً. ربما تكمن صعوبة كتابة السيرة في كونها حواراً مع غائب، وقد يكون ذلك نفسه هو سرّ جمالها؛ فالغياب لا يعني العدم.

-٦-

يوجد ما يُغري في المقارنة بين البحث البوليسيّ في اختفاء شخص ما وبين البحث عن حياة شخص لكتابة سيرته؛ بين لغة التحقيق ولغة الاستقصاء، بين القضايا الباردة والوثائق المهمّشة أو المستبعدة، بين غياب الأدلّة وغياب الخيوط السرديّة، بين ما يحكيه الآخرون وما ننجح في استقرائه ممّا لا يقوله الآخرون. في الفعلَيْن، قد يواجه المحقق وكاتب السيرة طرقاً مسدودة؛ خيطاً كان واعداً للحظة ثم تبدّى أنه وهم. كلاهما عُرضة للتشتت والإحباط والصدف السعيدة التي تربط بين شيئين لم يظنّا في بداية رحلتهما أنهما مرتبطان. أيضاً، كلاهما قارئ للشهود والشواهد والشهادات ولديه طرقه العنيفة أو الصبورة في التعامل معها.

يعنّ لي إضافة مفردة "الافتتان"، إنه شعورٌ بالانجذاب تجاه ما هو مخفيّ

وغائب ومجهول ومتناقض فيما يريد المحقق معرفته، وما يريد كاتب السيرة فهمه، رغم أن الأول يبحث عن دلائل إثبات والثاني يطمح لتأويل الدلائل.

-٧-

حتى لو كان كاتب السيرة قد عاصر بعضاً من حياة مَن يكتب عنه، فسيظل هناك دائماً لحظتان تاريخيتان تتقاطعان في كل صفحة. لا تحضر هاتان اللحظتان في ذهننا نحن القراء بسبب البُعد الزمني في هذه الحالة، بل لأن هناك شخصيّتين محوريتين في النص، إحداهما غائبة والأخرى حاضرة وتُريد أن تستحضر هذا الغائب عبر الكتابة عنه. أتخيل أن على كاتب السيرة أن يُحدّد موقعه مِن الشخص الذي يكتب عنه، وهذا لا يأتي عبر تقييم الغائب أو مدحه أو التعاطف معه، أو الدفاع عنه أو محاكمته كما نرى في كثير من السيَر، بل من محاولة فهمه. إن التفكير بهذه الطريقة يجعل مهمة كاتب السيرة أكثر تعقيداً من مجرد كتابة قصة حياة موثقة؛ لأن عليه أن يحاول تحديد موقعه وسؤاله في الزمن الذي يعيشه أولاً، وأن يعي أنه يكتب عن شخص آخر له لحظته التاريخية، وله أيضاً طريقته التي تعامل بها مع هذه اللحظة.

-٨-

كتبت الكاتبة والأكاديمية أليسون بوث ساخرةً أنّ السيرة الغيرية "أقل الأنواع الأدبية دراسة"[18]. وهي ترى أن "الدراسات الأدبية تعكس حركة

[18] Alison Booth: 'Prosopography and Crowded Attention in Old and New Media'. In: Leader, Zachary. 2015. On Life-writing. Oxford: Oxford University Press. pp. 72–98 (p. 86).

سوق الكتب وتتناسب معها. تحصل الرواية على نصيب الأسد من الاهتمام النقدي، ثم السيرة الذاتية والمذكرات، ثم تأتي السيرة الغيرية بعد ذلك. في الدوائر الأكاديمية، تُتناول السيرة الغيرية في التخصصات التاريخية وضمن مناهج البحث المتعددة، ولكنها قد تكون مع ذلك غير مرئية مقارنة بالاهتمام النقدي الذي تستحقه لذاتها"[19]. يمكننا إضافة سبب آخر لهامشية السيرة الغيرية في النقد الأدبي، ألا وهو طبيعتها ذاتها؛ فالسيرة الغيرية رغم أنها نص سردي في الأساس، إلا أنها ليست سرداً تخييليّاً، وأول ما يُحدّد قيمتها هو مصداقية ما تقدمه من توثيق وقراءة وتأويل في المجال التاريخي الذي تتّبعه. تختلف الأدوات التي تتناول - منهجيّاً - بالنقد سيرةً لأحد رواد الاقتصاد الإنجليزي في الثلاثينيات عن أدوات نقد سيرة تتناول فرجينيا وولف في العقد نفسه. أيضاً موضوع السيرة؛ فحتى لو كان شخصاً ينتمي للماضي السحيق، فهو لا بد لا زال حيّاً بشكل ما في مجال المعرفة، وإلا ما كُتبت عنه سيرة الآن وهنا. بهذا المعنى تطغى القراءات الأيديولوجية لموضوع السيرة على قراءتها كسرد أدبي، بل إن التحيزات والتصورات المُسبقة عن موضوع السيرة تلعب دورها في عملية التلقي والعمل النقدي على حد سواء[20].

السيرة الغيرية ليست تخييلاً، وإن كان التخييل مكوّناً أصيلاً من متنها، وليست مجرد حكاية رغم أنها تفقد هويتها إذا لم يكن ممكناً قراءتها والاستمتاع بها كحكاية. لكل ما سبق، قد يكون مهماً في تناول السيرة

---

[19] السابق، ص ٨٧

[20] على سبيل المثال، بقراءة مراجعات نقدية عشوائية عن السير المتعددة لشخصية مثل جمال عبد الناصر، يجد القارئ العربي نفسه في خضم صراع سياسي وأيديولوجي وكثيراً ما تركز المراجعة النقدية على تصحيح معلومات تاريخية أو مجادلتها بتقديم تأويل آخر حولها. نادراً ما تقرأ في هذه المراجعات آراء نقدية عن لغة السرد أو بنائه.

الغيرية أن يكون نقدها أيضاً عابراً للأنواع؛ لا يفصل السرد ولا اللغة عن سؤال كاتب السيرة حول من يكتب عنه، ويحلل طرق تعامل السيرة مع الأرشيف في علاقتها بقصة الشخص موضوع السيرة. أيضاً، قد يكون مستحيلاً أن نبني نقداً للسيرة الغيرية دون أن نراها حوارا بين لحظات تاريخية عدّة: لحظة حياة موضوعها ولحظة كتابة سيرته ولحظة قراءتنا لها.

المنهج الإثنوغرافي واستكشاف الحركات الاجتماعية في فلسطين: أنثروبولوجيا الهبّة 2011–2021

سعد عميرة

أكاديمي وباحث فلسطيني مهتم بالإيكولوجيا السياسية، والتاريخ الاجتماعي، والحركات الاجتماعية في فلسطين. يدير حالياً برنامج الدراسات الحضرية في كلية القدس-بارد في جامعة القدس. أسس مبادرة "ذكريات فلسطينية مهددة"، التي تعنى بتوثيق التاريخ الشفوي لفلسطين الخاص بالفترة ما بين النكبة والنكسة.

حملت شمسة الحسنة جرّة اللبن، ودارت في شوارع حيفا باحثةً عن زبائن محتملين لها. بائعة متجوّلة تبحث عن بيع فائض منتوجها في شوارع مضطربة بالأحداث بعد استشهاد الشيخ عز الدين القسّام. لم يلتفت أحدٌ إليها، سواء من مارة أو جنود. وفي لحظة تحوّل المشهد، برشاقة تامّة أخرجت مسدّسًا كانت قد خبّأته في صدرها، وسلّمته إلى أحد المارّة. أخذه منها ونفّذ عملية عسكرية ثم أعاده إلى شمسة التي أعادته بدورها إلى مكانه وعادت بهدوء تامّ إلى عملها اليومي. ما حصل كان عملية تصفية لأحد العملاء العرب في شوارع المدينة، نفّذتها خليّة تابعة لمجموعة الكف الأسود (مجموعة أسّسها الشيخ عز الدين القسام في عام 1930، وارتبطت به عملياتياً أو شبكياً، لمواجهة الانتداب البريطاني وعمليات نهب الأراضي).

تلتقي قصّة شمسة الحسنة مع قصص أخريات، كنّ وما زلنَ رأس حربة في مشروع مقاومةٍ أفقيّ قد يشتعل في لحظات أو أيّام وقد يأخذ شكل "الهبّة"؛ تنحسر ثم تعود لتصعد من جديد في فترات وأشكال مختلفة. كيف لنا أن نكتب عن هذه القصص؟ وكيف نُدرك "الهبّة" الفلسطينية في وقتٍ تكثفت فيه أشكال المقاومة الشعبية والاحتجاج الأفقي في فلسطين؟ وكيف لنا أن نكتب إثنوغرافيا عن هذه الموجات ونوثّق صعودها وانكفائها؟

تخطي خطاب الأفندي والباشا وأكاديميي الإقطاع

تُعيدنا قصة شمسة الحسنة إلى قدرة الناس "العادية" على نسج المقاومة في تفاصيل حياتهم اليومية. دفاعٌ مُستمرّ عن مسائل حياتية يومية حميميّة قد تبدأ من مسكن كحيّ الشيخ جرّاح، أو فضاء حضريّ كباب العامود

أو من أماكن العبادة والتنزّه... ترتبط هذه الأماكن ارتباطًا وثيقًا بوجود الفلسطينيين؛ إذ تُشكّل قيمة مُضافة معنويّة إلى حياتهم. ولكن النسق العفوي في الدفاع عن هذه الأماكن اصطدم بعمليات ممنهجة هدفت إلى ضرب الاقتصاد الأخلاقي[21] للشعب الفلسطيني القائم على الفَزعة/العونة (مساعدة الناس لبعضهم البعض)، واستبداله بشبكة علاقات قائمة على هيمنة كبار الحرس على محاور الحياة السياسية في الضفة المحتلة.

لهذا درجت العادة التاريخية على الاحتفاء بالإقطاعيين؛ المخاتير وورثتهم من السياسيين وكبار الحرس. في المقابل، تمّ اختزال فاعلية الأبطال "العاديين" و"العاديات" في قوالب عامة مثل "الشعب"، وهو ما أفقد هذه التجارب الغنية خصوصيتها وأقصاها أمام قصص النخب وبطولاتهم المتخيلة[22]. قصة شمسة وغيرها من التجارب تُحيلنا الى أهمية تنويع مناهجنا المعرفية في استكشاف ظواهر قيد التشكل؛ على سبيل المثال: ما كانت قصة شمسة لتصلنا لولا التاريخ الشفوي بصفته منهجا بحثيا غير نخبوي، وكنّا سنكتفي بسرد قصص النساء البرجوازيات الفلسطينيات كقصة متيل مغنم على سبيل المثال؛ فقد أُتيح لمتيل مرافقة زوجة المندوب السامي ونَشر كتاب بالإنجليزية عن الثورة العربية عام 1937، ناهيك عن تأنقها الدائم وتأكيدها لرفيقاتها الإنجليزيات بأن صديقاتها العربيات لسن جاهلات، بل "متحضرات" بطلاقتهنّ باللغة الإنجليزية وارتدائهن الجوارب الحريرية[23].

---

[21] يساعدنا منظور الاقتصاد الأخلاقي على تفسير الصراع حسب المرجعيات الأخلاقية-الثقافية للشرائح أو الطبقات المسحوقة والمرتبطة بمفاهيمهم الخاصة (غير المستوردة) عن الجشع والبخل والفقر والظلم والعصيان.

[22] GUHA, Ranajit and SPIVAK, Gayatri Chakravorty. 1988. Selected Subaltern Studies. New York: Oxford University Press.

[23] FLEISCHMANN, Ellen. 2003. "The Nation and It's New Women: The Palestinian Women's Movement 1920-1948". California: University of California.
MOGANNAM, Matiel. 1937. The Arab Women and the Palestine Problem. London: Herbert Joseph.

تُهيمن النخب على الخطاب العام بشكل يُصبح فيه التاريخ والحاضر انعكاساً لسرديّاتهم ويومياتهم، وهذا ما يُفقدنا القدرة على إدراك آليات التغيير وديناميته الاجتماعية، كما تُصبح مسألة إنتاج المعرفة وتقصّي الحقائق غير مُجدية؛ وذلك بفعل الدوران في فلك لا يسمح إلّا برؤية رأس الهرم. لتجاوز هذه المعضلة، لا بُدّ من الإنصات إلى كلّ ما يحدث: الأصوات والهمهمات والتهكّمات وموجات السخط والسخرية القادمة من قاعدة الهرم ورؤية أزقّة المدن وأحيائها الشعبية ودردشات نسائها. نحتاج إلى حوارات ودردشات متعمقة مع الناس تتيح لنا بناء معرفة مجتمعية تُقرّبنا من فهم الصدمات والتحركات التي تتخمّر خارج المكاتب والجامعات والأطر المخمليّة. من أجل بناء هذه المعرفة وتكثيف طابعها التاريخي علينا استرجاع التفاصيل، وهذا يتمّ بالاستعانة بالذاكرة الشعبية واستقراء المذكرات الشخصية والصور القديمة، أو ما يُسمّى بالتاريخ الشفوي ودراسات الذاكرة[24]. أمّا عندما نستكشف ظواهر قيد التشكّل كالهبّة الفلسطينية التي ارتبطت بحي الشيخ جراح عام 2021 وامتداداتها فيجب البحث في الذاكرة التي قد تسعفنا وتمدّنا بقصص تاريخية، مثل قصة الشهيد عمر القاسم ابن هذا الحيّ الذي اشتبك وأقرانه الفتية مع قافلة صهيونية كانت تعبر الحي ناقلةً مؤنًا ومعونات للجيب الصهيوني المحاصر في جبل المشارف[25].

---

[24] من الأعمال الهامة في هذا المجال، عمل المؤرخ الشفوي أليساندرو بورتيللي عن المقاومة الإيطالية للحكم النازي. يسرد الحرب عبر حدثين منفصلين في تاريخ روما، مستكشفاً معاني المقاومة، والبطولة والعمالة عبر سرديات الناس. للقراءة انظر:

PORTELLI, Allesandro. 2007. The Order Has Been Carried Out: History, Memory, and Meaning of a Nazi Massacre in Rome. London: Palgrave Macmillan.

ولكن الذاكرة لا تستطيع أن تشرح لنا شبكة العلاقات الآنية أو تلك العفوية/الروتينية التي أفرزت الهبّة حي الشيخ جرّاح التي تمحورت حول الكرامة والحق في المسكن وحرية العبادة والتنقل. لهذا من الضروري الانخراط في الحياة اليومية للتجمعات الفلسطينية، بهدف تفسير التحوّل من حالة الهدوء إلى حالة الهبّة. يتطلّب الأمر مُجاورة وملاحظة دائمة لأنماط السخط والحشد العفوي، على أن تشمل الملاحظة أي شيء وكل شيء. على سبيل المثال، تنشر صفحة ساخرة على فيسبوك تعليقاً ضد الفساد، يتبعه بث مباشر ضد رموز الفساد السياسي لأحد الأشخاص كثيري المتابعين، تتدحرج موجة السخط في شبكات التواصل الاجتماعية لتصل إلى دعوة لمسيرة احتجاجية، أو ربما قد يستمر السخط في العالم الافتراضي. هذه الدورة الأفقية غير الممولة والمتقطعة يجب أن تكون مثار دراسة وتمحيص للصحفي أو الباحث المهتم بالحركة والتنظيم الأفقي وأشكال المقاومة للضعفاء[26].

الصحافة الإثنوغرافية، أو إنتاج المعرفة من الأسفل

يُحيلنا ما سبق الى أهمية الانفتاح على مناهج بحثية توثيقية قائمة على الملاحظة؛ أي: التقرّب من الناس والإقامة بينهم والكتابة عنهم حسب معايشتهم والانخراط في شؤونهم اليومية. وهي كلها توجهات نجدها في المنهج الإثنوغرافي، الذي يُمكن إخراجه من ميدان البحث العلمي للاستعانة

[26] يسرد الأنثروبولوغ الأميركي جايمس سكوت قصصاً عن الأنماط اليومية التي يستخدمها الضعفاء في مقاومتهم لقوى القهر في قرية ماليزية، وفي أكثر الأحيان لا تصل هذه الأنماط حدّ العصيان المفتوح، ولكن من الممكن أن تكون مدخلا لذلك. من هذه الأنماط: سرقة الفقراء لبعض محاصيل الأغنياء خلال العمل عندهم، وإطلاقهم نعوتًا ساخرة عليهم، والتململ في العمل، وشيطنة الأغنياء البخلاء وإجبارهم بشكل اجتماعي على تحمل بعض النفقات الاجتماعية المرتبطة بأوقات الحزن والفرح. للقراءة انظر:
SCOTT, James. 1985. Weapons of the Weak, Everyday Forms of Peasant Resistance. New Haven, CT: Yale University Press.

به في عالم الصحافة. هذا ما يدفعنا خلال بحثنا في الحركات الاجتماعيّة والهبّات الى استكشاف المعاني التي يضفيها الفرد؛ بمعنى: محاولة تخطّي الكليشيهات والقوالب المجتمعية والأمنية لنصل الى مساحات وأفكار وتوجهات شخصية حميمية تُقرّبنا من المزاج الشخصي في لحظات السخط الاحتجاجية. في هذا السياق، يساعدنا المنهج الإثنوغرافي[27] على دراسة القيم والعادات والعلاقات والتحديات المجتمعيّة، كما يساعد على التعمّق في السلوكيات والمشاعر وطرق تفاعل الأفراد. عادةً، يتضمن هذا المنهج انخراطاً للباحث في الحياة اليومية للناس، وإقامته بينهم لمدة تمتدّ إلى أشهر، بالإضافة إلى مشاهداته المدعّمة وأسئلته التي تأخذ شكل دردشات عفوية أو مقابلات منظمة ومباشرة. مع الوقت، يصبح الباحث واحدًا من الناس؛ إذ يتلاشى إحساسه بالعُزلة ويصبح وجوده موضع ثقة ومصارحة[28].

تتشابه بعض منهجيات العمل الصحفي الاستقصائي مع منهجيات البحث الإثنوغرافي، وخاصة من ناحية استخدام المقابلات الشخصية والملاحظات. ولكن يوجد اختلافات جوهرية لا يُمكن إغفالها أو تجاوزها كالموضوعية مثلاً، أو مدى انخراط الباحث أو الصحفي في موضوع البحث أو حتى المدة المعطاة لإتمام العمل. تعتبر الموضوعية ضرورة في المجال الصحفي؛ إذ لا بدّ أن ينفصل "المهنيون" منهم عن الحدث. لكن يوجد بعض الإرباك في هذا الطرح، خاصة وأن الصحفي لا بُدّ وأن ينحدر من موقع اجتماعي ما، كما

---

[27] للتعرف على دراسة إثنوغرافية في السياق الفلسطيني، يُرجى مراجعة دراسة الكاتب (عميرة، 2021) حول إطلاق الاحتلال الخنازير البرية في محافظة سلفيت، وتطهيرها للزراعة الموسمية المرتبطة بالحركة والتنقل. انظر:

AMIRA, Saad. 2021. "The slow violence of Israeli settler-colonialism and the political ecology of ethnic cleansing in the West Bank". Settler Colonial Studies.

[28] O'REILLY, Karen. 2004. Ethnographic methods. UK: Rouledge.

أن المؤسسة التي يعمل لصالحها سيكون لديها خطّها السياسي وقربها البنيوي من السياسيين والنخب، وهذا ما يجعلها عرضة لإفراد مساحة أكبر لخطاب النخب، وهو ما يُقوّض ادعاء الصحافة تقديمها للحقائق[29]. أمّا البيئة البيروقراطية السائدة في وسائل الاعلام فهي تجبر الصحفي على الالتزام بمواعيد تسليم محددة، وعادةً ما تكون ضاغطة، وهو ما يؤثر على إمكانية تعمّقه في الأحداث الجارية واستكشافه لشبكة العلاقات والفاعلين الاجتماعيين؛ كالحركات الاجتماعية ذات بنى التنظيم الأفقي أو "اللاحركات الاجتماعية"[30].

بينما من المطلوب من الصحفي تتبع اللحظات التي يُمارس فيها الناس الاحتجاج خارج الأطر القانونية أو الإدارية، بالإضافة إلى التقاطعات الحضرية والاجتماعية والفردية التي تدفع الناس للخروج الى الشارع أو الاعتراض في الفضاء الافتراضي.

من أجل صقل الموضوعية في العمل الصحفي يجب تقديم معرفة نقدية ذات قيمة اجتماعية، وهو ما يُطلق عليه حديثاً بالصحافة الإثنوغرافية. هذا النسق الصحفي قائم على التقرب والغوص في مجتمع ما، للوصول إلى وجهات نظر ورؤى داخلية دقيقة؛ إذ لا يكفي أن ينزل الصحفي على الأرض للعمل على موضوعه حاملاً كاميرته وميكروفونه أو جهاز التسجيل الخاص به. هذا الوصول المفاجئ قد يُربك أي شخص، وقد يدفعه إلى تقديم إجابات غير دقيقة ولا عميقة.

---

[29] CRAMER, Janet & MCDEVITT, Michael. 2004. "Ethnographic journalism". New York and London: Routledge.

[30] BAYAT, Asef. 2010. "Life as Politics: How Ordinary People Change the Middle East". Stanford, Calif: Stanford University Press.

"الحركات الاجتماعية" بصفتها عملية أفقية قيد التشكل: هبّات 2011-2021.

بناءً على ما سبق، سنُحاول قراءة الحركات الاجتماعية في فلسطين من أجل تقديم عيّنة عملية لما يُمكن للصحفي الاستعانة به من مجال الأنثروبولوجيا، وكيفيّة تعمّقه في القراءة.

أفرزت الانتفاضة الأولى في فلسطين منظومة مجتمعية قائمة على تقاطع الحزب السياسي؛ الحي والعائلة. امتازت هذه التشكيلات بقدر من الأفقية والعفوية؛ بحيث لم يكن الحيز اليومي الاحتجاجي خاضعا بشكل كلي لتعليمات الخارج. يصف المفكر الإيراني-الأميركي آصف بيات هذه الانتفاضة بأنها واحدة من أكثر التحركات تعبئة قاعدية في التاريخ المعاصر للشرق الأوسط، فقد امتازت بشعبيتها، وبمشاركة واسعة من النساء والأطفال[31]. لتنفيس هذه الحالة الشعبية، صُكّ اتفاق أوسلو الذي حوّل الفدائي إلى موظف أمن تحت الاحتلال. في هذه البيئة المشوهة، نشأت منظومة موازية غير تحررية تحاكي نموذج التنظيم الاجتماعي المعروف "بالمافيا". يُجادل المفكر الاجتماعي إيريك هوبسباوم في أنّ ابتعاد حركات التحرر عن نسق عمل الحركات الاجتماعية يجعلها أقرب إلى نموذج "المافيا" كمنظومة عربدة وابتزاز مالي[32]. مع انحسار الانتفاضة الثانية، وبعد الاقتتال الداخلي في غزة وما أبدته لاحقا من مقاومة، وفي ضوء تكثف ظاهرة الذئاب المنفردة في

---

[31] المصدر السابق، ص6

[32] للتعرف على أنماط التنظيم الاجتماعي كالمافيا، العصابة، وكذلك روبن هود والمجتمعات السرية وغيرها، يرجى مراجعة عمل المؤرخ البريطاني إيريك هوبساوم (1965). انظر:
HOBSBAWM, Eric. 1965. Primitive Rebels. New York: W.W Norton & Company.

الضفة الغربية، أعيد إنتاج مشروع أوسلو لجعله أكثر كفاءة في ضبط الحياة اليومية. في المقابل، تخمّرت مجموعة تجارب وحملات مضادة حاولت التأثير في الحيز السياسي عبر قضايا اجتماعية وسياسية. استمدت هذه التجارب بعض الزخم من ثورتي مصر وتونس، وبدأت معالم حركة اجتماعية بالتبلور. تمثلت هذه التجارب بموجة من الحملات والهبات الاحتجاجية ذات الدفع الشبابي. تفاوتت جميعها في درجات التنسيق، وطبيعة المحاور المطلبية، وحديّة الخطاب وطبيعة الأدوات الاحتجاجية.

من أوائل هذه التجارب، كانت تجربة "الحراك الشبابي المستقل"، كان عبارة عن حراك احتجاجي اشتمل على بضع مجموعات شبابية غير محددة الأعضاء ودائمة التبدل والحركة. تلاقت هذه المجموعات في العام 2011، تحت حملة "15 آذار - الشعب يريد إنهاء الانقسام"، وقامت بالتنسيق لسلسلة نشاطات وتظاهرات شبابية ضد الاستيطان وجدار الفصل العنصري، هذا إضافة الى تنظيم مجموعة وقفات أمام المقاطعة في رام الله احتجاجا على التطبيع والعودة للمفاوضات[33]. استمرت هذه المجموعات بتنظيم الاحتجاجات تحت اسم الحراك الشبابي، وسرعان ما بدأت المطالبة بإيقاف التنسيق الأمني مع الاحتلال وإسقاط النظام. تعرضت هذه المجموعات الشبابية إلى مضايقات وتصفيات من قبل الأمن الفلسطيني، وفي أواخر العام 2017 أضحت شبه غائبة. يوجد شحّ في الدراسات التي تناولت الموضوع، بالإضافة إلى قيام بعضها بإسقاطات نظرية مستوردة لا يُمكن اعتمادها مع حالة اجتماعية قيد التشكل. لا توظف أغلب هذه المقالات المنهج الإثنوغرافي القائم على بناء معرفة من

[33] الأعرج، باسل والشعيبي، زيد، 2012، الحراك الشبابي ... و"حزب الكنبة"الفلسطيني، رام الله: مجلة الدراسات الفلسطينية العدد رقم 90.

الأسفل عبر المقابلات والمشاهدات والانخراط في نشاطات المجموعات ومراجعة مذكراتها وتغريداتها وشعاراتها. في ضوء ذلك، لا تصلنا المعاني التي أضفاها المحتجون على حراكهم ولا تساعدنا هذه الأدبيات في تأطير هذه الحالة في سياقها المدني والاجتماعي المتغير.

شبكات وحركات اجتماعية في عالم متغير

ربط عالم الاجتماع تشارلز تيلي بين تطور الحياة الديمقراطية الأوروبية ونشأة الحركات الاجتماعية، بحيث اعتبر أن التجربة البريطانية في مناهضة العبودية تستحق أن تصنف أولَّ حركة اجتماعية في العالم. اعتمدت هذه التجربة على الاحتجاج الجماعي بجمع التواقيع وتقديم الالتماسات وعلى رفع شعارات موحدة[34]. في المقابل، استنتج المفكر آصف بيات مدى فقر التنظير الغربي في مجال الحركات الاجتماعية، فدفعه ذلك إلى استكشاف أنماط الاحتجاج اليومي في شوارع وميادين طهران والقاهرة؛ حيث قام بتسييس صراعات البقاء اليومية لملايين من الفقراء والمجموعات المضطهدة، مؤطراً إياها في مفهوم "الحياة كسياسة". إضافة إلى ذلك، صكّ بيات مفهوم "اللاحركات الاجتماعية"، الذي شرح من خلاله ديناميكيات العمل الجماعي غير المنظم لشرائح اجتماعية لا تحظى بقيادة مركزية أو أيدولوجية أو أنها لا تمتلك بنية تنظيمية حتى؛ كأصحاب البسطات وسكان العشوائيات وربّات البيوت واللاجئين. تقوم هذه الشرائح بانتزاع حقها في المدينة عبر "الزحف الهادئ" في الفضاء العام[35]. في هذا السياق،

---

[34] TILLY, Charles. 2004. Social Movements, 1768-2005. Colorado: Paradigm publishes. P : 33-36.

[35] BAYAT, Asef. 2010. "Life as Politics: How Ordinary People Change the Middle East". Stanford, Calif: Stanford University Press. P: 4.

يخلق الشباب حيزاً ثقافيا خاصاً بهم، وأي تعدٍ عليه يخلق معارضة شبابية على نسق حركة اجتماعية منظمة، كثورة ماي 1968 الطلابية-العمالية في باريس، أو قد يخلق ما يُسمّى باللاحركة الاجتماعية. تتبلور هذه اللاحركات الاجتماعية - خصوصا في الدول البوليسية - عبر نشاطات يمارسها الشباب على مرأى من بعضهم البعض في المقاهي والنوادي والمتنزهات، من دون أي تنظيم اجتماعي أو سياسي[36]. ساهمت ثورة ماي الطلابية (باريس) بتعزيز النقاش حول جدلية "الحركات الاجتماعية الجديدة"، والمهم في هذه النقاشات انفتاحها على استكشاف أنماط جديدة من الاحتجاج والفاعلية، من دون حصرها بثنائيات كثنائية يمين/يسار، أو الحركة العمالية/النخبة البرجوازية، أو الحيز العام/الحيز الخاص أو الحيز الثقافي/الحيز الاجتماعي[37]. دفعتنا ثورات الربيع العربي لتجاوز بعض الثنائيات سابقة الذكر، وإعادة قراءة الناشطيّة والفاعلية الاجتماعية في العالم العربي عبر تجارب الحركات الشبابية والشبكات المكانية والافتراضية التي تنشط من خلالها.

في السياق الفلسطيني، استكشف الباحث إبراهيم نتيل مدى ملاءمة مفهوم "الديمقراطية التشاركية" لشرح تجربة الحراك الشبابي وفعالية حملة "15 آذار" المطالبة بإنهاء الانقسام، بحيث استنتج عدم انطباق المفهوم على الحالة الفلسطينية للأسباب التالية: عدم مشاركة الشباب في الانتخابات منذ العام 2006، افتقار النظام السياسي الفلسطيني إلى أحزاب ديمقراطية، اضطهاد الاحتلال للشباب الفلسطيني منذ النكسة وانقسام فتح وحماس.

---

[36] المصدر السابق، ص17-19

[37] لمراجعة جدلية "الحركات الاجتماعية الجديدة"، انظر عمل باحث علم الاجتماع كريغ كالهون (1993) CALHOUN, Craig. 1993. "New Social Movements of the Early Nineteenth Century". Social Science History Vol. 17, No. 3 (Autumn, 1993).

يوجد إشكال جوهري في هذا الطرح، وهو متعلق بجدوى إسقاط مفهوم "الديمقراطية التشاركية" على حالة استعمار استيطاني[38]. أما الباحثة ربا صالح فاستحضرت "فضاء الظهور" للمفكرة حنّة آرندت في تناولها لتجربة "حركة الشباب الفلسطيني". في هذا الفضاء، يُحوّل المضطهدون ضعفهم إلى قوة عبر الوعي بوجود الآخر المضطهد، ثم التضامن معه وتحويل الفضاء العام إلى ساحة تواجد وتشبيك وتمرد. تقدم حركة الشباب نفسها في سياق عالمي مضاد للاستعمار عبر بناء تحالفات وتقاطعات مع مجموعات أصلانية وسوداء. ولكن لم تترجم حركة الشباب هذا الخطاب المناهض للكولونيالية إلى فعل احتجاجي في فلسطين أو مخيماتها، وعليه من المبالغ به اعتبار حركة الشباب حركة اجتماعية، بل مُجرّد شبكة أو منتدى[39]. في محاولة لتقديم سرد تاريخي عن الحركات الشبابية، حاول الباحث الفلسطيني أحمد عزم استكشاف مئة سنة من العمل الشبابي الفلسطيني. قام بالتركيز على تجربة الحراك الشبابي بين عامي 2011 و2018، وعرّف الحراك الشبابي بأنه عبارة عن مجموعات احتجاجية مستقلة عن الأحزاب السياسية مؤمنة في النزول إلى الشارع تعرف ما لا تريد أكثر من معرفتها لما تريد وتأمل في تحقيق تغيير لكنها ليست حركات بناء وتطوير وتفتقد إلى بنية هرمية. يرى الباحث أن من أحد أهم أسباب عدم بلورة الحراك الشبابي "لفعل مؤثر" هو الفشل بالتحول من حراك إلى حركة أو تنظيم. يبدو جلياً في فهم عزم للتنظيم السياسي هو اعتماده على شكل واحد من التنظيم؛

---

[38] NATIL, Ibrahim. 2013. Palestinian Youth Movements and "the Arab Spring". In: Arbatli E., Rosenberg D. (eds) Non-Western Social Movements and Participatory Democracy. Societies and Political Orders in Transition. Springer, Cham. P: 7-8

[39] SALIH, Ruba, & WELCHMAN, Lynn & ZAMBELLI, Elena. 2017. The Palestinian Youth Movement (PYM): Transnational Politics, Inter/national Frameworks and Intersectional Alliance.

فهو يشدد على التنظيم الهرمي العمودي أو "الحزب" بينما يغفل أهمية ووجود أشكال أخرى من التنظيم كالأشكال الأفقية. تنشأ (وتختفي) هذه الأشكال الأفقية لضرورات موضوعية ترتبط بحماية الفاعلين عدمَ تقديم بنية مكشوفة للاستعمار ووكلائه[40].

الحراك الشعبي: صوت من لا رأس له

محاولة التعاطي مع كل موجة أو هبّة شبابية احتجاجية بشكل منفصل، ومحاولة قراءة فعاليتها وبنيتها قياساً بديناميكيات الأحزاب السياسية، ستوصلنا حتماً إلى استنتاجات سطحية، كما أنها ستؤدي إلى إغفال مسألة مهمة وهي: عملية تبلور حركة اجتماعية تحت الاحتلال الإسرائيلي والسلطة الفلسطينية، وفي بيئة نقابية سياسية معدومة، وفي كنف مجتمع مدني ريعي، إنها عملية كرّ وفرّ طويلة الأمد وذات أثر غير فوري بل تراكمي. هذه الموجات ذات البنية الاجتماعية الأفقية ترتبط بتقاطعات فضاءات مادية ورمزية مثل: الشجاعة وكسر الخوف وتشكيل رأي عام مضاد بأدوات وشعارات خلاّقة وتحرير الفضاء العام وفتحه للجميع والقدرة على تحريك الشارع.

في هذه الموجات يتحوّل الشباب من مجرد فئة عمرية إلى قوة اجتماعية محركة تتقاطع التجارب مع بعضها البعض بحيث تتلاقى وجهات النظر وتتنافر في الوقت نفسه، ثمّ تتراكم، وهو ما ظهر واضحاً في هبتَي القدس والشهيد نزار بنات.

---

[40] عزم، أحمد. 2019. "الشباب الفلسطيني من الحركة إلى الحراك"، 2018-1908. رام الله: مركز مسارات.

لهذا يصعب على منظومة الاستعمار ووكلائها سحق العمل الأفقي؛ لأنه ببساطة غير ممثل بمؤسسات وليس لديه روتين محدّد ولا تمويل أو قيادة هرمية، بل هو موجود في المشاع والفضاء العام الاحتجاجي. تمخضت هبّة القدس الأخيرة عن إضراب كل مكونات الشعب الفلسطيني من عكا مروراً بالقدس ورام الله ووصولا إلى غزة. تكثّف هذا الحراك الشعبي عبر هبّات اشتملت على نقاط اشتباك لم تكن محصورة بالجغرافيا السياسية للضفة الغربية، بل تجاوزتها إلى عكا واللد وأم الفحم، وتقاطعت مشاركتهم مع صواريخ المقاومة في غزة. من الضروري قراءة هذه الهبّة عبر العودة إلى الموجات والهبّات الشعبية المتقطعة في السنوات العشر الأخيرة. هذه الهبّة لم تولد في لحظة أو من فراغ، بل جاءت نتاج عمليات مترافقة من الهدم الاجتماعي والبناء والاحتواء التي تمخض عنها حراك شعبي يتكثف في أوقات الاشتباك مع الاستعمار ووكلائه، وينكفئ بعد حين.

الأجساد الهامشية.. الكلمة الفصل

إذا تتبعنا المزاج الشعبي العام ما قبل هبّة القدس، سنجد مزيجاً من اليأس المموّه ببعض السخرية، وهذان مؤشران على انتفاء أي فعل أو حركة. أما إذا قرأنا هذا الجمود في سياق مئة عام من الهبّات والاحتجاجات فسنجد أنَّ حدثاً واحداً قد يحوّل الجمود إلى حركة عبر فيض من الدردشات والتدفقات البشرية الأفقية التي تتكثف عبر شبكات الأصدقاء والزملاء وأبناء وبنات الحي. في السنوات العشر الأخيرة، ومع تحول النخبة السياسية الفلسطينية التقليدية إلى نخبة أمنية تحت الاحتلال، أسهم التحشيد الأفقي القائم على نسق الحركات الاجتماعية - الاحتجاجية في كسر جمود الفضاء العام وامتداده الافتراضي.

بناءً عليه، من المفروض على الصحفي أو الباحث إدراك فضاءات الفعل والأصوات المؤثرة التي حوّلت الخضوع إلى حركة اجتماعية واحتجاجية. ومن أجل فهم أفضل للبنى التحتية – الأفقية للتغيير، من المطلوب من الصحفي أو الباحث وضع نفسهما كل واحد مكان الآخر حتى يتسنى لهم ملامسة الظروف التي تدفع الكثيرين (من صاحب البسطة إلى التاجر الصغير والموظف وعنصر الأمن المتمرد وربّة المنزل) للنزول إلى الشارع. هذه الرؤية الإثنوغرافية ستساعدنا على إدراك وترسيخ التغيير في الأصوات والأجساد الهامشية التي لطالما خسرت صوتها.

"السردية التاريخية" وحتميّة عبور النهر

خالد زيادة

كاتب لبنانيّ وأستاذ جامعيّ وباحث في التاريخ الثقافي والاجتماعي ودبلوماسي سابق، ولد في مدينة طرابلس عاصمة الشمال اللبنانيّ عام 1952، ودرس في مدارسها الرسميّة، وانتسب إلى قسم الفلسفة في كلّيّة الآداب بالجامعة اللبنانيّة، وحصل على الإجازة في الفلسفّة، كما حصل على الدكتوراه عام 1980 من جامعة السوربون- باريس.

بعد حصولي على الشهادة الثانوية، اخترتُ التوجّه إلى كلية الإعلام لإكمال دراستي. كان ذلك في العام 1971، وكنت أظن أن الصحافة يمكنها أن تدخلك في عالمين اثنين إن شئت: عالم السياسة وعالم الكتابة. كان الإعلام آنذاك غير ما هو عليه بعد نصف قرن من الزمن. جاءتني آنذاك نصيحة ثمينة بأن الكتابة في الصحافة ليست بحاجة إلى دراسة. تركتُ كلية الاعلام، وانتسبت إلى كلية الآداب والعلوم الإنسانية. كان الأمر يتطلب آنذاك عبور الشارع الذي يفصل بين مبنيين، لكن المسافة بين المجالين كانت واسعة.

تداخل الاختصاصات

من المثير للاهتمام طرح إشكاليات أمام الكتّاب والباحثين تفتح أفقًا جديدًا ومبتكرًا لمعالجات وأبحاث تستفيد أو تدمج بين حقول بحثية متنوعة. إذا كان الأمر يتعلق بانفتاح العلوم الإنسانية والاجتماعية بعضها على بعض فهذا الأمر ليس جديدًا؛ فمنذ بداية القرن مع مدرسة (Les Annales) الفرنسية، افتتح المجال الواسع أمام كتابة "التاريخ" على ضوء العلوم الاقتصادية والاجتماعية. أفكر على سبيل المثال بعمل فرنان بروديل "هوية فرنسا" الذي يجمع المعرفة المنوّعة من التاريخ إلى الجغرافيا إلى الاقتصاد والاجتماع، فضلاً عن معرفة عميقة بالمناخ وأدوات الإنتاج وغيرها. تمامًا كما يحضر في بالي جاك لوغوف[41] ومجمل أعماله المتعلقة بالقرون الوسطى التي قرأها من جديد حيث شؤون الدين والاقتصاد والاجتماع والأنثروبولوجيا تأتي في سياق واحد. هذه الأعمال وغيرها استغرق إنجازها عمرًا كاملاً

[41] أشهر مؤرخ فرنسي من مدرسة "الحوليات". له 48 مؤلفًا معظمها عن القرون الوسطى الأوروبية؛ منها: المثقفون في العصر الوسيط، حضارة الغرب القروسطي، من أجل عصر وسيط آخر، الإنسان القروسطي، العصر الوسيط اليوم، هل نشأت أوروبا في العصر الوسيط؟ إله العصر الوسيط، بحثًا عن العصر الوسيط، عصر وسيط مديد، الأبطال والخوارق في العصر الوسيط، هل يجب فعلًا أن نجرّئ التاريخ إلى شرائح؟ إضافة إلى كتب عن المنهج التاريخي الحديث.

بالنسبة لأشخاص جاؤوا من مجال التاريخ الذي أصبح يتسع للعلوم الأخرى المُجاورة أو الأقلّ مُجاورةً.

تبدو لي الصحافة في الفهم العام نقيض ما ورد أعلاه؛ فالوقت أصبح ميدانًا للمنافسة، والخبر مهما كان نوعه لا يحتمل التأخير. حتى فيما يخصّ التحقيقات، يكون لدى الصحفي وقت محدود لإنجاز عمله، ومساحة مُحدّدة ضمن الصحيفة الورقية على سبيل المثال لا الحصر. حين طلب مني أحد الصحفيين المخضرمين في مطلع السبعينات - وكنت لا أزال طالبًا جامعيًا - بعضَ المراجع المتعلقة بإحدى الطرق الصوفية، استغربت كيف أنه اختزل الكثير من المادة ليُقدّم ما اعتبره المعطيات التي "تثير فضول القارئ". لكن واكبت الصحافةُ التطورَ الذي أحرزته العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية. وقد اجتذبت على الدوام أدباء ومفكرين وسياسيين ومؤرخين وجدوا طريقة للتواصل مع الرأي العام، لكن ثمة فرق بين الصحافي المحترف والروائي أو السياسي أو المؤرخ الذي يختار الصحافة وسيلةً للتواصل مع قرّائه أو الذي تدعوه الصحيفة نفسها للكتابة بهدف جذب القرّاء؛ فالصحافي المحترف يتطلب منه عمله أن يتابع اليوميات السياسية والاقتصادية والثقافية وهو بهذا المعنى يتعاطى التاريخ المباشر، ومع مرور الوقت تصبح الصحيفة مصدرا من مصادر الكتابة التاريخية.

بديهيّة اللجوء إلى المنهج الأنثروبولوجي

حين تركت كلية الصحافة وتوجهت إلى كلية الآداب، اخترت دراسة الفلسفة التي تتبع منهجًا من دراسة الفلسفات القديمة إلى اليونانية إلى العصر الوسيط إلى العصر الحديث. لكن طالب الفلسفة يدرس أيضًا علم النفس

وعلم الاجتماع والفكر الحديث. وهكذا فإن طلاب الفلسفة نوعان: الأول يشمل الذين يتابعون أبحاثهم في موضوعات الفلسفة، والثاني الذين يتابعون تحصيلهم للخوض في مجالات بحثية تدمج عادة بين الفكر السياسي والاجتماعي والتاريخي.

ثمّ قررتُ متابعة تعليمي العالي، وأخذت موضوعًا يتعلق بتطور الأفكار وبشكل خاص تأثير الفكر الفرنسي على العثمانيين في القرن الثامن عشر. كان الأمر يتطلب تلقائيًا العودة إلى المصادر التاريخية، والتعرّف إلى تجربة الإصلاح في ذلك العصر، ومواقف رجال الدين ورجال الإدارة والعلاقة بين الشرق والغرب. هكذا كان المطلوب أن ألمّ بمراجع تنتمي إلى حقول معرفية مختلفة لأصوغ منها موضوعًا واحدًا. فعلت ذلك عن غير قصد إلا أن الأمور أخذت هذا المنحى. حين كتبت "تطور النظرة الإسلامية إلى أوروبا"، كان عليّ أيضًا أن أعود إلى كتب الجغرافيا والتاريخ والأدب والموسوعات والفقه.

باشرت كتابة مقاطع - أصبحت فيما بعد "مقاطع من سيرة مدينة" - في كتاب صدر لاحقًا بعنوان: "يوم الجمعة، يوم الأحد". لم أكن أفكر حين بدأت بكتابتها ونشرها - في مطلع تسعينات القرن الماضي في مجلة الناقد وملحق النهار - بأنني أُعدّ كتابًا، ولكنني وجدت لاحقًا أن ما كتبته يعبّر عن تراكم من المعرفة التي عشتها، والمعلومات التي اختزنتها، والمناهج التي تعلمتها وعلّمتها في مادة الأنثروبولوجيا. الذين قرأوا الكتاب والذين كتبوا عنه لفتوا نظري إلى أنني قدمت تجربة من كتابة خارجة عن التصنيفات الشائعة؛ فلا هي رواية ولا هي سيرة تمامًا ولا هي تاريخ. كان كتابًا منوعًا يمكن أن يُقرأ من وجهات نظر متعددة. الكتاب هو عن المدينة التي عشت فيها طفولتي وصباي (طرابلس في شمال لبنان) وكنت ألاحظ خلال كتابتي التحولات

التي تعيشها المدينة، والتغيرات التي طرأت عليها، وعمليات هدم مبانٍ أثرية لا تفسير له سوى النزعة إلى الربح وإقامة مجمعات تجارية أو سكنية. ولكي أكمل الكتابة تطلب الأمر أن أقوم بجولات داخل أحياء المدينة، وبعضها كانت معرفتي بها قليلة. وانتبهت آنذاك أنني كنت أعيش في ناحية من المدينة، أما سكان المدينة فيعيشون في أحياء ومناطق مختلفة لا تشبه بعضها بعضًا ولو كانت تشكّل مدينة واحدة. وهذه هي طبيعة المدن، لكنني اكتشفت أنني حين كنت أكتب قد استخدمت ضمنيًا منهجًا أنثروبولوجيًا يقوم على الثنائيات؛ الليل والنهل، البحر والنهر، المسلم والمسيحي، الجمعة والأحد.. ثمة نظام ضمني غير ظاهر يحكم حياة المدينة. لهذا فقد قرأ الكتاب تلامذة الهندسة المعمارية ووجدوا فيه بعضاً ممّا يبحثون عنه، وكذلك طلاب الآداب، والعلوم الاجتماعية، والتاريخ، والأنثروبولوجيا.

عبور المدينة.. للعبور إلى الأنثروبولوجيا

إذن، كنا نتحدث عن صحافة أنثروبولوجية، وهنا لا بُدّ من التذكير بأن الصحافة لم تزدهر إلا في المدينة التي يمكن أن تحتضنها وتؤمن بها. وقد أدركت أن المدينة التي نعيش فيها هي المجال المثالي للعمل الأنثروبولوجي ولبناء صحافة أنثروبولوجية. نعيش في مدن لا نعرفها، ليس في المدينة الكبيرة فحسب بل حتى في المدن المتوسطة في عدد سكانها وامتدادها الجغرافي، ودون أن ندري فالكائن لا يشغل سوى حيّز محدّد من المدينة. وإذ انتقل من مكان إلى آخر داخل المدينة عادة ما يحدث ذلك في وسيلة نقل فيمرّ بمناطق لا يعرف عنها سوى ما يبدو ويظهر منها. حين كنت في القاهرة سألت أحد الأشخاص عن مكان فأجابني أنه لم يعبر النهر في حياته كلها، كان جوابًا خارقًا؛ أي أنه لم يزر في حياته وسط المدينة الذي يقع في الجهة

الأخرى من القاهرة. فكرت بأنني في مدينتي التي أعيش فيها التي يعبرها النهر، قد تمضي أشهر طويلة بل سنوات من دون أن أعبر النهر، على الرغم من أن عشرات الآلاف يعبرونه كل يوم. كانت هذه المسألة مفتاح عشرات من الأسئلة التي يُمكن لأجوبتها أن تشكل مدخلاً أو مداخل لأبحاث في علم الأنثروبولوجيا التي تندرج في إطار الأنثروبولوجيا المدينيّة، أو بشكل أوسع أنثروبولوجيا الحياة اليومية، أو دراسة الحيّز والكائن، والساحة العامة والأطراف، ووظيفة الساحة وحركة السكان في الأسواق، والفقر والغنى، والقديم والحديث. إذا غادر الفرد الحيّز الذي يقيم فيه وأبعدناه عن الخط الذي يصل بين سكنه ومكان عمله، فإنه يتحول إلى سائح في المدينة التي سيسكن فيها.

إن البحث الأنثروبولوجي يشبه عبور النهر، وأدوات البحث في النسق والنظام والبنية والوظائف والأدوار هي بمثابة جسر العبور من ضفة معلومة إلى ضفة مجهولة. أول مرة عبرت النهر في مدينتي كنت في العاشرة من العمر، وحين وصلت إلى الجهة الأخرى شعرت أنني انتقلت إلى مدينة أخرى، وإلى زمن آخر سابق للزمن الذي أعيشه، كانت الضفة الشرقية الشمالية أقرب إلى المناطق الريفية تشهد نزوحًا من تلك المناطق، وتختص باستقبال الإنتاج الزراعي، أما الضفة الغربية الجنوبية فكانت أقرب إلى البحر ويمارس بعض أهلها التجارة، والصناعات الحرفية.

الصحافة وشرح الحياة

المدن ظواهر متغيرة وخصوصًا في عالمنا المعاصر، قد يبقى من التاريخ أسماء بعض المدن وبعض المعالم الأثرية، لكن هل نستطيع أن نجد في بيروت شيئًا

من تاريخها الروماني غير بضعة آثار لم يتم التنقيب عنها كما يقتضي علم الآثار؟ لاحظت من خلال دراستي حول المدن أن الباحثين يتجهون عادة إلى استنطاق تاريخ المدينة، وقد يبدو الأمر بديهيًا إلا أنه قد يكون مضللاً أيضًا؛ فالمدن تمر بمراحل جديدة عبر تاريخها وتتبدّل أحجامها ووظائفها وأدوارها السياسية. وفي جميع الأحوال وجدنا من يجعل التاريخ حكمًا على الحاضر، وأصبح شائعًا القول إن "الأقصر" مدينة فرعونية، والقاهرة فاطمية والإسكندرية يونانية وبيروت رومانية وجبيل فينيقية وطرابلس مملوكية. قد يُفيد ذلك في قراءة مرحلة من تاريخ هذه المدينة أو تلك، لكنه لا يُفيد في معرفة حاضرها، بل على العكس من ذلك؛ قد يضلل معرفتنا بحاضرها.

في تجربتي الدراسية خصصتُ وقتًا طويلاً لدراسة التحولات التي طرأت على المدينة وخصوصًا في فترة اقتحام الحداثة لمدننا ومجتمعاتنا. تطلب الأمر العودة إلى مراجع ومصادر منوعة في التاريخ والفقه والجغرافيا وأدب الرحلات والمذكرات إلخ.. إن صراعًا استمر لوقت طويل بين القديم والحديث، وكانت المعركة غير متكافئة؛ ذلك أن أدوات الحداثة ووسائل اقناعها كانت تتغلب دائمًا على القديم الذي يختزن تاريخًا طويلاً عاشته المدن خلال ألف سنة أو أكثر. إلا أن الصراع بين القديم والحديث لا ينتهي فيعود القديم بأدوات يستعيرها من الحداثة ليستعيد حضوره، ولكن بأساليب مختلفة.

لاحظت في "يوم الجمعة يوم الأحد" أن فورة التحديث في نهاية الخمسينات وبداية الستينات التي دفعت سكان المدينة إلى الانتقال من الأحياء القديمة قد ترافقت مع موجة من نزع الحجاب. كانت المرأة المُحاطة بالجيران

والأقارب الذين تعودوا على حجابها قد تحررت من القيود الاجتماعية، وخلعت الحجاب حين تخففت من الرقابة التي يفرضها الحي (الحارة) التي تسكن فيها. تُرى كيف نفسّر عودة الحجاب إلى الحيّز العام في المدينة؟ هل يتعلق الأمر بالمعتقد أم بالسلوك الذي يفرضه علينا الحيّز العام؟ نحتاج إذن إلى إعادة قراءة المدينة واكتشافها. إن حياتنا الحاضرة ترتبط بالمدينة، وحتى أولئك الذين يعيشون في الأرياف البعيدة أو القريبة من المدن، فإن ارتباطهم بالمدينة يتحكم بحياتهم. المدينة هي حياتنا المعاصرة وتحتاج إلى صحافة تفيدنا وتشرح لنا الحياة التي نعيشها والأنساق التي تتحكم بها.

المعايشة والحِشرية لإنتاج المعرفة

المدن اليوم خليط من فئات اجتماعية مختلفة، وسكان أتوا من مناطق متباعدة، وأحياء غنية وأحياء فقيرة. والمدن اليوم تجتذب الحركات الاجتماعية ذات الطابع السياسي أو المطلبي، كما حدث في أكثر من مدينة غربية وعربية في العقدين المنصرمين من قرننا الراهن. إن الباحث الأنثروبولوجي ليس بحاجة إلى قراءة تاريخ الحركات الاجتماعية ليسجّل تقريره عن الأحداث التي شهدتها المدينة (الميدان كما يسمى في بعض المدن) أو وسط المدينة. كيف أمكن أن يجتمع هذا العدد الكبير من السكان من أحياء وفئات وطبقات متعددة؟ وكيف يخلق الحشد مجتمعه وشعاراته ولغته ومطالبه إلخ؟

إن ميزة الأنثروبولوجي هي الحِشرية المعرفية، والباحثون في مجال الأنثروبولوجيا الذين ذهبوا إلى أقاصي الأرض في حوض الأمازون أو عاشوا مع قبائل أفريقيا وأستراليا، لم يكن لديهم أي مراجع أو مصادر عن تلك

الجماعات التي عاشوا بينها وكتبوا عنها. إن المعايشة الطويلة هي التي تنتج المعرفة، وهي التي تيسّر لنا معرفة المجتمع أو الظاهرة التي ندرسها، بل إن المعايشة هي التي تصوغ الأسئلة التي نجد أجوبتها، دون أن تكون لدينا أسئلة مسبقة.

إلا أن ذلك لا يلغي أبدًا العودة إلى المصادر والوثائق. أشير في هذا المجال إلى جاك لوغوف، والذي قدم لنا فهمًا جديدًا للقرون الوسطى يسمح بتفسير بعض الظواهر المعاصرة. وقد سمحت لنا الوثائق الشرعية بفهم أعمق لعلاقة العائلة بالسياسة والوظائف الاجتماعية على ضوء تطورها عبر الزمن؛ فالزعامة السياسية عادة ما ترتبط بالوجاهة العائلية أو المحلية على سبيل المثال. إن وظيفة (مختار المحلة) لا يفسّرها التعريف القانوني، وإنما يفسّرها تطورها الزمني من "شيخ الحارة" كما كان في القرن الثامن عشر وما قبل. لا بدّ من بعض الأعمال الرائدة التي يستخدمها الباحث الأنثروبولوجي؛ أذكُر هنا أعمال الأنثروبولوجي إيفانز بريشارد[42] وكتابه "النوير: وصف لنماذج من الحياة ومن المؤسسات السياسية لشعب نيلي" الذي كان أكثر كتاب مؤثر في الأنثروبولوجيا وقت صدوره عام 1940. هذا الكتاب يدل على خبرة هذا الباحث ومقدرته على تقديم دروس مبسّطة وواضحة قد يستفيد منها المختصون وغير المختصين من الصحفيين وسواهم. وفي هذا المجال أشير إلى كتاب آخر على درجة كبيرة من الأهمية في مجال الأنثروبولوجيا السياسية لجورج بالانديه، وهو كتاب يحتوي على حصيلة دراسات في مجتمعات أفريقية متعددة، ويبّين فيه بالانديه علاقة السياسة

[42] إدوارد إيفانز- بريتشارد (1902–1973) أنثروبولوجي بريطاني بارز، اشتهر بأعماله الميدانية في أفريقيا، ولا سيما دراسته لقبائل النوير في السودان. أسهم في تطوير الأنثروبولوجيا الاجتماعية من خلال منهجه التفسيري الذي ركز على فهم النظم الثقافية والدينية من منظور المجتمعات نفسها.

بالدين والعائلة والمكانة الاجتماعية وتقاطعاتها، والأهم من ذلك يبيّن لنا كيف أن تحديث المؤسسات السياسية في مرحلة الاستعمار (تأسيس أحزاب وبرلمان وممارسة الديمقراطية إلخ..) لم يصمد أمام التقاليد الراسخة، وكيف استطاعت البِنى التقليدية أن تستوعب البِنى الحديثة.

تعتبر جدلية التقليد والحداثة - أو صراع التقاليد مع الحداثة - المفتاحَ الذي ينبغي أن يمتلكه الباحث في مجال الأنثروبولوجيا؛ فكل مظاهر حياتنا وعاداتنا الاجتماعية والسياسية والعقائدية تشهد صراعًا خافتًا أو حادًا بين التقاليد وبين التحديث، والذين يريدون أن يصوغوا "سردية تاريخية" حول ظاهرة من ظواهر حياتنا المعاصرة عليهم أن يعودوا إلى تاريخ قريب؛ إلى الفترة التي شهدت مدننا وبلداننا تأثيرات التحديث؛ حين أصبح لنا برلمان ودستور وعلم وجيش نظامي ومدارس رسمية وجامعات إلخ، كما عليهم أن يلحظوا كيف أن هذه المؤسسات التي أُسِّست وأُنشِئت على النمط الغربي - وغالبًا بالاستعانة بخبراء أوروبيين - تحولت إلى مؤسسات هجينة ذات وجه حديث ووجه تقليدي.

صحافة الرحلة..
أن تكون مكانًا

يوسف رخا

كاتب وشـــاعر من مصر، ولد عام 1976، حاز شـــهادة البكالوريوس في الآداب من جامعة "هل" البريطانية. صدر له عدد من الروايات؛ من أبرزها "كتاب الطغرى" و"التماســيح" و"باولــو". له كتــب في أدب المكان؛ منها "بيروت شـــي محل" و "بورقيبة على مضض" و"شمال القاهرة-غرب الفلبين".

أنا المكان الذي حدث فيه شيء – **كلود ليفي ستراوس**

(١) نحو حياد ذاتي

سنة ٢٠٠٥ عدتُ إلى الكتابة الطوعية بعد انقطاع دام ست سنين. أقصد بالكتابة الطوعية تلك التي أشعر بضرورة إنجازها وأديرها وحدي خارج سياقات العمل، وعادة بلا اتصال بيني وبين آخرين. في ذلك الوقت - باستثناء قصائد قصيرة ومتباعدة - كانت كتابتي كلها للجريدة التي أعمل بها، إما بتكليف من محرر أو باقتراح مني في سياق سياسة تحريرية قائمة. ولكي تسهل الإشارة إليه، سأسمّي النوع الثاني من الكتابة كتابة وظيفية.

كنتُ نشرتُ مجموعة قصص سنة ١٩٩٩، وتوقّعتُ أن تحظى بالاهتمام الذي يستحقه أي جهد مخلص، سواء كان رد الفعل إيجابيًّا أو سلبيًّا. لكنني اصطدمت باستحالة أن ينتبه أحد إلى نصوصي الأدبية وأنا في مستهل العشرينات من عمري، وقد أمضيت سنوات دراستي الجامعية خارج البلاد. حتى ناشري - شأنه شأن سواه في ذلك الوقت - لم يكن معنيًّا بالترويج لمطبوعاته على أي وجه. هكذا سقط الكِتاب في بئر بلا صوت، لكن لحُسن الحظ - أو لسوئه - تزامن سقوطه مع التحاقي بالعمل في أشهَر جريدة أسبوعية ناطقة بالإنجليزية في مصر.

كان رئيس التحرير المؤسِّس مشغولاً بالكفاءة والجودة على المستويين اللغوي والبصري، خلاف الغالبية العظمى من قيادات الصحافة القومية

كما كانت تُسمّى المؤسسات التابعة للدولة التي تنتمي هذه الجريدة إلى إحداها. كان يُثمِّن المعارف والمواهب، وما إن أُعجِب بكتابتي حتى أعطاني مساحة كبيرة ليس فقط من الناحية الكمية، ولكن أيضًا بالرجوع إلى درجة الحرية في التوجه والأسلوب داخل إطار الكتابة الوظيفية.

لا أذكر لحظةً قرّرتُ فيها بشكل واعٍ أن أنفض عني الطموح الأدبي ثم الكتابة الطوعية كلّها. لا أذكر متى فضّلت الفكرة لنفسي، لكن ما حدث هو أنني اكتفيتُ بما يُحقّقه لي عملي الجديد من امتلاء مادي ومعنوي. ساعَدَ على ذلك أنني كنتُ - بما يناسب دراستي وميلي - بعيدًا عن الصحافة الإخبارية والمحاجّة السياسية. تخصصت في الثقافة والتحقيقات، وكان القسم الأكبر من عملي الميداني عبارة عن مقابلة كُتّاب وتشكيليين ومُمثلين؛ أبحث في منجزهم وحياتهم ثم أذهب إليهم حيث يعملون أو حيث يعيشون لأسجّل إجاباتهم عن أسئلة عادة ما أَرتجِلُها، وأجالسهم محاولًا أن ألتقط شيئًا من روحهم لأضعه في المقال. أحيانًا أصوّرهم أيضًا، وأحيانًا أخرى أرافق مصوّري الجريدة لأكتب نصوصًا لقصصهم المصورة.

مع الوقت بتّ لا أشعر باختلاف كبير بين الكتابة الوظيفية والإبداع الأدبي، وهو شكل الكتابة الطوعية الذي يشغلني. ومع أنني ظننت ما أقوم به للجريدة صحافة عادية، يبدو الآن واضحًا أنني كنت أُطوّع تقنيات سردية وغنائية لصالح أشكال من التوثيق للتجربة الإنسانية لعلها تُحقّق مآرب الصحافة الأنثروبولوجية بالفعل. سأعتبر هذا التوجه نوعًا من الكتابة الطوعية، علمًا بأنه النوع الذي يعنيني في السياق الحالي. وسأسميه توثيقًا ذاتيًا في مقابل التوثيق الموضوعي الذي تنطوي عليه الصحافة في معظم أشكالها.

في الصحافة الاستقصائية - على سبيل المثال - عادة ما توضع أطروحةٌ ما بصفتها إجابةً مسبقةً عن سؤال مفترض - السياسي الفلاني فاسد لأنه تلقى رشوة، مثلًا - ولا يكون النص بما فيه من بحث ميداني إلا محاولة جافة لإثبات صحة الإجابة. لا يذهب الكاتب إلى مكان ما لم يكن متعلّقًا بعمل السياسي الذي يتتبّعه، ولا يتكلم مع أحد إلا ليحصل على معلومات تُفيده في إدانة ذلك السياسي.

بلا التحام بين الذات والموضوع، تتحول الكتابة إلى تحقيق جنائي أو تجربة معمليّة قد تُسهم في تراكم المعرفة من زاوية مجرّدة لكنها لا تقوم بدور الشاهد. بلا وعي مباشر - أثناء انخراطي في الصحافة - كنت أبحث عن كتابة تشتبك نفسيًّا وحسيًّا مع التجربة الإنسانية تبحثها وتسبر غورها في آن. واليوم يبدو واضحًا أن الصحافة إذا لم تفعل ذلك مهما أبهرتنا موضوعيتها تظلّ ناقصة.

المثير حقيقةً أنني كنت أكتشف وأطوّر منهج كتابة جديد. فمع أن إيقاع العمل أسرع وسياقه أكثر سطحية من أن يَسمح ببحث عميق في أي موضوع واحد، بين المشاوير أو الرحلات للقاء أشخاص بهدف استنطاقهم وبين البحث في المجالات التي يعمل بها هؤلاء وظروف حياتهم وفي منجزاتهم وسياقاتها التاريخية، كنتُ أطوّر كتابة تستوعب الجانب الذاتي من عملية تتقاطع مع موضوعات كتابتي دون أن تفقد التزامها بالوقائع والمعلومات أو حيادها حيال ما يطرحه الواقع من ظواهر.

لكن، بدلًا من ادّعاء نظرة لا وجود فيها لذات تنظر أو موقف لا وجود فيه لذات تقف - وهو ادّعاء باطل بتعريفه - كانت تلك الكتابة تعترف بالوجود

الدائم للذات وتتجاوز انحيازات تلك الذات بالاشتباك معها وليس بإنكارها أو التغافل عن حتمية تأثيرها على النظرة والموقف الذي يعبّر عنهما النص. هذا المنهج كان يتطور عُضويًّا داخل مجال الكتابة الوظيفية بعيدًا عن أي تفكير واع في المنهجية، لكنه مكّنني من الانخراط في نوع من الكتابة الطوعية لم أكن أحسبه ممكنًا. فقد أتاح إطارًا توثيقيًا يتجاوز الأدوات الموضوعية التي تغفل عن قسم كبير من الحقيقة بحثًا عن تطابق مستحيل بين النص والواقع، وانحيازًا لما يمكن قياسه وإثباته مهما خلا من الدَلالة، وإصرارًا على أهمية المعلومة مع فرض لا واعٍ لتأويلات أيديولوجية لها.

غير أن شيئًا من ذلك لم يتحقّق بالكامل أو يبلغ أوجه إلى أن أتيحت فرصة لتطبيق المنهج على أدب الرحلة.

(٢) الكتابة تجسّدًا للسَفَر

انتقل التوثيق الذاتي من الكتابة الوظيفية إلى الكتابة الطوعية إثر زيارتي الأولى لبيروت في نهاية عشريناتي، بعد مرور نحو عشر سنين على التحاقي بالعمل في الجريدة. خلال ذلك الوقت كنتُ أعدتُ اكتشاف السفر بصفته نشاطا ترفيهيا ومعرفيا، لكن ربما لأن أسفاري كانت في مجملها إلى بلاد بعيدة وتمت في سياقات شخصية لا علاقة لها بالعمل لم أعقد صلة واضحة بينها وبين الكتابة. هذه السَّفْرة غيّرت كل شيء.

كانت بيروت أول مدينة عربية أراها في حياتي غير القاهرة. وقد رأيتها لأول مرة أثناء فعاليات الذكرى الثلاثين لاندلاع الحرب الأهلية اللبنانية، فور انسحاب الجيش السوري بعد اغتيال رئيس الوزراء اللبناني رفيق الحريري

وأثناء انقسام المجتمع إلى مُعسكرين – كلاهما يجمع أكثر من طائفة – أحدهما ضد النفوذ السوري والآخر معه.

كنت ذهبتُ وفي نيّتي إنجاز مادة صحفية قصيرة عن الأحداث من زاوية ثقافية: آراء الكتاب والفنانين أو مدى انخراطهم في الحراك، فضلًا عن التجليّات الإعلامية للتحركات السياسية، لكنْ ما إن أمضيتُ بضعة أيام هناك حتى وجدتُني منساقًا - بعفوية وفرح - وراء أشكال كتابة لم أكن قد مارستها منذ زمن طويل، وأخرى لم أمارسها أبدًا من قبل. أن يحرّك السفر الكتابة شيء لافت ومبهج حقيقةً، لكن في طياته أيضًا مفتاح قيمة لقاء النص بالواقع واللغة مع الظاهرة الإنسانية.

عدتُ إلى نصوص شعرية من زمن نشر مجموعة قصصي الأولى، وطوّرت شكل المقابلة الصحفية التي أكتبها لجريدتي لأحوّل البورتريه الطويل إلى لمحة خاطفة أو ملاحظة تحليلية، وخلطتُ نتاج أبحاثي الدؤوبة بوقائع الحرب الأهلية وتاريخ طوائف لبنان والخلفيات الأيديولوجية للعنف فضلًا عن اعترافاتي الشخصية المتعلقة بوجودي في بيروت في ذلك الوقت في القصائد والمقابلات. كان السفر يبعثني مُمارسا شغوفا بالكتابة الطوعية.

الآن أنتبه إلى أن رحلة بيروت تلك - على قِصر مدتها وعدم وعيي بالأمر - حقّقت شروط البحث الأنثروبولوجي بالفعل. كانت منطقة الحمرا ومحيطها هي "ميدان" البحث في لحظة تحوّل، ومن خلفه مصادر معرفية نصية وسمعية-بصرية لا منتهية. بالاستفادة من تلك المصادر والانخراط في خبرة المكان، كانت تتجلى في العمل الميداني مفاهيم إنسانية – اجتماعية وسياسية وتاريخية – جديرة بالتوثيق والتحليل: الاستقلال الوطني،

العلمانية، التضامن. كما كان هناك "بَيْروتِيّون" من "السكان الأصليين" لميدان البحث اصطحبوا الباحث وقاموا بدور «الإخباري».

كذلك - وربما هذا الأهم - تسنّت فرصة لمراجعة الحالة الإنسانية العربية من خلال مقارنات: بيروت في مقابل القاهرة، الهُوية اللبنانية في مقابل الهوية المصرية، العالم العربي لحظة اندلاع حرب لبنان – قبل مولدي بأكثر قليلًا من سنة – في مقابل العالم العربي بعد أحداث ١١ سبتمبر/أيلول ببضع سنين... ثم - وهنا القضية الكبرى - الذات الكاتبة التي رأت بيروت في مقابل الذات الكاتبة التي لم ترها.

من موقعي اليوم أديبا إن لم أكن صحفيًا – بعد نحو خمسة عشر عامًا من تجربة الكتابة عن بيروت، شهدتْ هويتي خلالها هي الأخرى تحولات – تبدو المسافة التي تقطعها الذات بين حالة وأخرى (الرحلة التي تقوم بها في لقائها بموضوع ما، والتحول الذي يلحق بوعي الكاتب نتيجة لذلك) أهم ما في النشاط الصحفي على الإطلاق، وأجدر جوانبه بالتجلي في النص.

تتحقق الحالة الإنسانية ليس فقط في الموضوعات التي توثق لها الكتابة – تحالف القوات اللبنانية مع تيار المستقبل[43] مثلًا – ولكن أيضًا - وربما في الأكثر - في استيعاب الكاتب لتلك الحالة وتأثيرها عليه؛ وذلك كتجاوزي للانحياز ضد القوات اللبنانية بسبب موقفهم التاريخي من القضية الفلسطينية وقد تغير سياق احتكاكي بهم، حيث كنتُ مع أصدقائي من أنصار ما سوف يصبح تيار ١٤ آذار. تبدو قيمة الكتابة في مقابل البث السمعي-البصري،

[43] حزبان سياسيان لبنانيان

وقيمة هذه الكتابة في مقابل التسجيل الجاف للمعلومات، تبدو في قدرتها على تمثل الموضوع عبر ذات الكاتب؛ حيث لا يعود الأمر مجرد ترجمة للواقع إلى لغة، بل يصبح تجسدًا للواقع في ذات الكاتب عبر تلك اللغة نفسها.

في التحليل النفسي، لا يُسمح للمحلّل بالبدء في تحليل آخر حتى يكون خضع هو إلى التحليل. ليس الهدف من ذلك التأكد من قدرته على فهم متطلبات العمل بقدر ما هو كشف انحيازاته واختلالاته اللاواعية من أجل رؤيتها بوضوح والسيطرة عليها قبل أن تتدخل في علاج آخر. هكذا التوثيق الذاتي: لا يستقيم التحام الكاتب بواقع جديد عليه حتى يجبره التفاعل على كشف انحيازاته. من هنا يأتي الحياد، وليس من التظاهر بأنه لا انحيازات هناك.

أتاح الاشتباك المباشر التلقائي ولكن الواعي والملمّ بالشروط المعرفية للتجربة مع مكان (جغرافيا، ثقافة، لهجة، أصدقاء، أحداث) ما لم يكن لأي منهج موضوعي أن يتيحه. لذلك بدا النص النهائي مختلفًا تمامًا عن الصحافة كما اعتدتها رغم تضمنه معلومات ومشاهدات ومقابلات من النوع الذي يغذي النصوص الصحفية، ورغم التزامه بوفرة ودقة المعلومات المتعلقة بموضوعه كالوقائع والتواريخ وتصريحات المصادر وتوقيتها إضافة إلى السياق المحيط بها... (نُشر «بيروت شي محل: نصوص وصور» بالتعاون مع مجلة أمكنة[44] السكندرية في طبعة محدودة صممها المرحوم محيي اللباد سنة ٢٠٠٦).

---

[44] مجلة مستقلة غير دوريّة تصدر من الإسكندرية وتهتمّ بثقافة المكان وتاريخه، وتحتل موقعاً خاصاً في المشهد الثقافي المصري، خاصة أنها لا تصدر من القاهرة، وتستند إلى الجهود الذاتية لمحرريها وكتابها، من دون تمويل من جهات رسمية أو أجنبية.

بعد زيارة بيروت – ومن خلال زيارات وإقامات في مدن عربية أخرى بدايةً – عُدتُ إلى الكتابة الطوعية عبر أدب الرحلة دونما أن أتخلى عن وظيفتي. وشعرتُ أنني - عبر التوثيق الذاتي المنبثق من الذهاب إلى مكان ما - أستطيع أن أنتج أدبًا وصحافة في آن. لكلّ هذه الأسباب يبدو لي مجاز الرحلة منهجا للكتابة ليس فقط أجملَ، ولكن أيضًا أكثرَ فائدة من مجاز التحقيق الجنائي أو التجربة المعملية.

(٣) إرشادات للمسافر

حين تبدأ الرحلة، سيكون في رأسك ألف صورة للمكان الذي أنت ذاهب إليه. لا تحاول أن تتخلّص منها، لن تُفلح. ضعها أمامك بكل وضوحها حتى تتمكن من مقارنتها بما سوف يُلقي به الواقع إليك. حاول ألا تخجل منها مهما بدت ساذجة أو مبتذلة، فقط لا تدعها تدلّس عليك. لا تخلطها بما تراه.

لرحلتك غرض على الأرجح وقد يكون للكتابة دور في إصابته. لا تُغفل غرضك، لا تغفل الأسباب الصريحة للكتابة. لكن عليك أيضًا أن تفرّغ مساحة في رأسك لنصوص تختمر من تلقاء نفسها. دع الكلمات تغلي على نار مشاهداتك وما تثيره من تاريخ أو ذكرى، وافسح لها مجالًا لتصنع من رحلتك كيانًا حيًا. عليك أن تتذكّر أن ذلك الكيان الحي هو الغرض الأبعد لمجيئك.

الطريق مرآتك. قبل أن تصل، فكّر بلا خوف في الذي ألقى بك في هذا الاتجاه. على خريطة ما ورائية تجمع بين الزمن والمكان، حياتك نقطة متناهية الصغر تصل بين مكانين. فكر بلا خوف في معنى أن تكون حياتك

نقطة وصل. اختبر الزوايا. اربط المكان بالزمن والفكرة بالتسلسل. أطلق عِنان حنجرتك للغناء.

لا تعوّل على رفاق الطريق، لا تتوقع منهم وفاقًا أو مساعدة. فقط تابعهم. اسأل إن استطعت عن سبب ذهابهم إلى نفس المكان. هل لحضورهم دلالة أوسع من صدفة وجودهم معك؟ هناك ألف قصة محفوظة عمن يسافرون من هنا إلى هناك، عن عاداتهم أو أهدافهم. لا تنفر من القصص لمجرد أنها محفوظة، عاملها مثلما تعامل الصور التي في رأسك.

اسمح لنفسك بالانبهار لحظة الوصول، لكن لا تدعه يُبعدك عما يؤلم. مع مرور الوقت ستقلل ألفة المَشاهد من سحرها، وعليك ألا تفزع من الغربة المترتبة على ذلك. في إيقاع الحركة والصوت، في تعرجات الطريق وزوايا الضوء مفاتيح هوية جديدة يمكنك أن تكتسبها إذا سلّمت نفسك للمكان. لا تتردد.

كل ما قرأته عن المكان في الجيوب الخلفية لرأسك وأنت سارح عبر الشوارع والمقاهي. اغتنم جهلك بالمخاطر لتقتحم مساحات لعلك تهابها لو كنتَ في مكانك المعتاد، ودع ذلك الذي قرأته يتسرب إلى ما يتبادر إلى ذهنك حيث أنت. ومهما أزعجك أو ساءك ما يحدث أمامك أو حتى معك، لا تحكم. اجعل هدفك أن تفهم، سواء عبر المقارنة بما تعدّه عاديًا أو من خلال ما قرأت.

بأسرع ما تستطيع، تأقلم. اتخذ لنفسك ركنًا مفضلًا في الحانة. احفظ رقم المترو. اكتشف طريقًا مختصرًا إلى محل إقامتك. ما هي المشاعر الحميمة التي يثيرها في قلبك أقرب كشك سجائر؟ والشخص الذي تراه على بوابة

الحديقة العامة كلما مررت من هناك، ماذا تظنه يفعل في هذا المكان؟

سيكون مفيدًا وممتعًا أن تسيح وحدك في أنحاء موطنك المؤقت لكن عليك أن تلتمس الدليل. لن تعرف عن المكان أبدًا أكثر مما يعرّفك أهله. قد ينبع من غربتك أو حيرتك ضوء ليس متوفرًا لديهم، لكن عليك أن تجد من يصحبك من أهل البلد ليعلّمك، ليس فقط بالإجابة عن أسئلتك أو التطوع بالشرح والتفسير. سيعلمك أيضًا عبر مشاهدتك لأدائه أبسط الفروض. شخص يمارس حياته بلا وعي أَقيَم من ألف فيلم وثائقي.

ستمرّ إقامتك، طالت أم قصرت، وتصيب الغرض الذي جئت بحجته. ستزداد معلوماتك أيضًا، وتكتسب معارف لم تكن في الحسبان. لكنك أثناء ذلك كله ستكون أنت تغيرت. هذا هو الموضوع؛ سيختلف إحساسك بنفسك وتقييمك للغير، وستفهم ماذا يعني السفر. على النص الذي تكتبه أن يشهد: أصبحت شخصًا يسكنه مكان.

(٤) الدولة المطار*

(...)

اليوم كفّ المطر. صُدّت جحافل مائية كانت قد اجتاحت الأسفلت، بقدرة قادر، كأنها لم تكن. في إثرها نسمة باردة –مقهورة– مثل عامل هاجر إلى هنا من پيشاور. عندما أشرق شيء حارق – الأمر الوحيد المتوقع، منذ جئت –

* مقتطف من كتاب "شمال القاهرة غرب الفلبين" ليوسف رخّا (دار رياض الريس 2009). في هذه المقتطفات يحكي الكاتب عن رحلته/انتقاله من القاهرة إلى أبو ظبي

دبّت الحياة في الشوارع. ازدحمت الأركان حتى صار إيقاف تاكسي يستهلك ساعة أو أكثر. الفرق بين الريح والشمس شيء كبير، فماذا أرتدي وهل أستمر في السير؟

مع زوال المطر أرى المكان في ضوء مربك، يبدو أبعد قليلاً عن شمال القاهرة. منذ ساعات وأنا منتبه إلى أمارات الفقر والانتظار. يعني في مصر، عندما يتكلم الناس عن هذا المكان، يصدّرون إحساساً بأن كل شيء فخم وسلس وسريع النفاذ. لا شيء أبعد عن الواقع. أنت تعرف كيف، وقت ينشأ منتجع سياحي فاخر في منطقة قفر، تقوم إلى جواره قرية سكنية متواضعة للعاملين هناك – على أن تكون خافية بما يكفي عن أنظار الزبائن – تستجلب مع الوقت متاجر ومصالح وخدمات كلُّها أرخص وأبسط وأكثر واقعية من مثيلاتها في المنتجع. اليوم أشعر أن البلد التي حللت بها هي الصورة المثالية لهذه القرية: المواطنون هم زبائن المنتجع الغائبون إجمالاً عن الحياة اليومية، أما بقيتنا من الوافدين فلا غاية من وجودنا سوى خدمتهم. تصوّر دولة كاملة - عضو في الأمم المتحدة - لا تعدو أن تكون قرية العاملين الملحقة بمنتجع سياحي. ثم إحساس الألفة مع كل من تلتقي بهم من غير أهل البلد، ذلك رغم تباين الأجناس وحدود التعاطف الممكن تحت هذه الظروف. الناس تخمّن مَواطن بعضها البعض كمسافرين جنحت بهم الطائرة إلى مطار معطّل. ودائماً هناك نظرة حنين تذكرك أن الشخص مهما طال به البقاء يظل محروماً من لغته وموارده الروحية متوجساً ووحيداً كالصراصير. هل هي مجرد صدفة أن اسم الشارع الرئيسي "أولد إيربورت رود" أو كما يقولها سائقو التاكسي - ماسحين الألف لام - بما يناسبهم: شارع مطار؟ سكني، بالدقة، على تقاطع شارع المطار مع شارع الجوازات. جوازات السفر، بالفعل. ثمة حزن أرجواني في المنتجعات.

1- سيدا، معلوم، سيدا

تأتي أوقات - منذ جئت - أنسى كل شيء وأنظر إلى السماء. في المغرب تتبخر المباني الشاهقة من فوق شبكة الشوارع المرقمة. يغيب الأسفلت والباكستانيون. على صفحة بيضاء تبرق إلى حد العماء – النور هنا يعمي فعلاً – ترتسم خطوط متباينة السُمك والاتجاه.

توسعها الألوان الخلابة أشكالاً يتدرج لمعانها فتنسيك التاكسي – لأنك في هذا الوقت، بالتأكيد، جنب السائق في تاكسي – وللحظة تظن أنك غادرت الراهن إلى المنسي. هكذا كان المكان قبل المباني الشاهقة وشبكة الشوارع، بعبارة أخرى – قبل قيام الدولة من لحمة القبائل المعدمة – والآن رجعت الصحراء صحراء. «سيدا» يعني دغري - هكذا تعلمت - و«معلوم» يستعملها سائقو التاكسي بمعنى: أعرف هذا العنوان. من مفردات العربية المبتسرة – الـ Pidgin Arabic التي أبدعها الوافدون من شبه القارة الهندية، «معلوم»، إضافة إلى «نفرات» (بمعنى شخص أو أشخاص على حد سواء) و«وين بلاد» للسؤال عن المنشأ... لكنني الآن لست منتبهاً لا للتاكسي ولا للغة السائقين. فقط الأرجوان والدم، سيوف وأباريق هي عبارة عن رمان خالص، برك وأنهار على كل الدرجات المحتملة للأزرق، وسلاسل بين عباد الشمس والبرتقال. عندما تزوم السيارة من خلف ناصية أخرى، سيخفت البريق بما يكفي ليرتد بصري. كل الدنيا سماء.

***

ليلتها على «كتف» الطريق – فجوة الرصيف المخصصة لتوقف السيارات، حيث يجتمع زبائن التاكسي – جاء حظي في شاب هزيل يرتدي ملابس

خفيفة، نحيل كأن جسمه ورق، يزيد من ضعفه أنه وحده – لا زبائن غيرنا الليلة – ولعله بردان في وحدته؛ فمنذ جاء وهو يقوم بحركات رياضية غريبة، غير منتبه – أبداً – إلى ما حوله. أكيد بردان ، لكن هناك شيئاً فكاهياً في الموضوع: هذا الشاب يتصرف كأنه بطل مصارعة يستعد للماتش، يختبر عضلات ذراعيه ويدرب رجليه على الجري، محلك سرْ، أو يفرد ظهره فجائياً ثم يركل ويلكم الهواء، طول الوقت يصدر أصواتاً غاضبة مكتومة، الأمر الملفت بالأكثر في ضوء نحوله ووحدته. وعندما أتى التاكسي - رغم أنني سبقته في الدور - نظرَ لي شزراً وانتفش صدره بأقصى ما يمكن. تقافز عرضياً حتى وقف بيني وبين الباب ثم جلس في المقعد الخلفي. تابعته يمرن ذراعيه والسيارة تبتعد. فبدا اتساع الشارع موحشاً، فجأة.

2- وحليلك

«وين بلاد»، «وين مكان». «سوّي خزام» و «سيجاة ممنوء» و «ما پي مآلوم». «الشاري سيدا؟» غير أن معجماً أكثر فصاحة يتسلل متقطعاً إلى وعيي اللغوي: «منو»: مَن - «وايد» («واجد»): كثير - «فريج»: حي - «رِبيع»: صديق - «يبّي»(«يبّا»): يبغي - «يسولف»: يحكي -..

الغريب أنني - لأول مرة حيال لهجة جديدة - لا أشعر برغبة في التعلّم. باستثناء كلمتين سأعرفهما أثناء جلسة نهارية في «المريديان» – أكل ولا شرب، لأول مرة – لن تستهويني الكاف التي تنطق «تش» (چ) ولا الميل إلى استبدال الجيم المعطشة بياء. فقط، تعبيراً عن الحب: «فديتك». وعلى سبيل السخرية الممتزجة بالتعاطف، كأن تقول لطفل «يا ننوس»: «وحليك». هكذا يقولون لي إذ سألت عن معاني الكلمات...

***

للنادلات الفلبينيات قدرة خارقة على استخراج ابتسامات مرحة من وجوههن الحزينة. مستحيل أن تعرف بم تعتمل رؤوسهن، أو من أين لأجسادهن «الميناتور» بالطاقة على الحركة ساعات متواصلة. لكن في لحظات الاختلاء بالذات، تلتف الوجوه نفسها بحزن خرافي يشعرك بخيبة أمل أعمق من المحيط الهندي. كل هذا، إذن، تمثيل؟ حزن قاس وثابت مثل واجهات المطاعم التي يعملن بها، الأمر الذي لا يمنعهن من الترحيب بزبون مستديم على نحو يوحي بمرح حقيقي.

***

وأنا أدور حول نفسي... عندما يصطحبني ز إلى المحافل الثقافية عندما أحضر محاضراته أو ألتحق به في عرض مسرحي سأتذكر هذا التعبير. وعلى الطريق من محل سكني إلى المول القريب حيث أسجل أسماء المصالح المحيطة بنومتي: مؤسسة فتح لتعليم قيادة السيارات، مطحنة البحر العربي وسوبرماركت الياقوت الأصفر، مخبز سعدية وخياطة البدع وبقالة السبيل، الأمير للقرطاسية، مغسلة حقيق أحمد لكوي (وليس كي) الملابس، على تلك الطريق كنت أكرر أبياتاً شاردة للمتنبي وأقول في عقل بالي، لروحي ولزكذلك، «وحليلك». أقول «وحليلك»، ضاحكاً، ثم أستمر في الدوران.

أنثروبولوجيا وصحافة..
نظرة عن كثب..
أو أن تقترب أكثر
من ميدان البحث

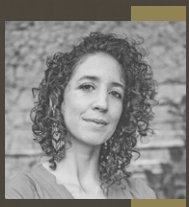

هيجياني دوناسمنتو فيريرا

أنثروبولــوغ وباحثة في مجال العلــوم الاجتماعية
من البرازيل.

ليس من السهل على الباحث اختيار المنهجيّة المناسبة لمقاربة ميدان بحثه، سواء كان العمل سيستغرق سنوات أو حتّى بضع ساعات. يستدعي الأمر كثيراً من الحرص، سواء كان الباحث على معرفة سابقة بالأشخاص موضوع البحث أم لا. إن كان على معرفة بهم فسيحتاج الأمر إلى خلق مسافة معنوية تسمح بإضفاء مشروعيّة على البيانات التي سيجمعها. أمّا العكس، فيستلزم بناء علاقة أساسها الثقة والتفهّم، حتى يتمكّن من استقاء معلوماتٍ ذات معنى أو فائدة للعمل البحثي[45].

سنُحاول في هذا النصّ التوسّع في الحديث عن المنهج الإثنوغرافي الذي يتبنّاه الباحثون في مجال الأنثروبولوجيا، وذلك عبر استعراض تجربة العمل على موضوعين بحثيين مختلفين حاولنا من خلالهما الانغماس في المجتمعات قيد الدراسة، وجرّبنا أساليب أنثروبولوجية مختلفة بناءً على المواقف التي واجهتنا أثناء العمل الميداني. سنقوم باستعراض هذه التجارب، وبمناقشة بعض أساليب وتقنيّات البحث المُعتمدة في الأعمال الأنثروبولوجية التي يُمكن للصحفيين توظيفها في عملهم بهدف التوسّع والتعمّق في معالجاتهم الصحفية.

انخراطٌ تدريجيّ في اليوميّ

توجّهتُ إلى واحدة من قرى شعب الغواراني[46] في ضواحي مدينة ساو باولو

---

[45] DA MATTA, Roberto. 1978. "O ofício de etnólogo, ou como ter ‘anthropological blues’". In A Aventura Sociológica, edited by NUNES, E. O. Rio de Janeiro: Zahar.
RIVIÈRE, Claude. 1995. Introduction à l’anthropologie. Paris : Hachette.

[46] شعب الغواراني هم من السكان الأصليين لأميركا الجنوبية. مجموعة من القبائل تتوزّع في البرازيل والباراغواي وجزء من بوليفيا والأرجنتين.

في البرازيل؛ لإجراء دراسة حول مطالب السكان الأصليين في عملية ترسيم حدود الأرض وعلاقتهم الخاصة بأرضهم[47]. كنت في جاهزيّة لبناء علاقاتي من الصفر مع السكان؛ إذ كانت حلقة معارفي تقتصر على مسؤول محليّ واحد. سهّل موقع القرية الجغرافي (في ضواحي المدينة) المَهمّة عليّ. كانت مكاناً يقصده الكثير من الزوّار الأجانب[48]، وهو ما جعل الوصول والتحدّث إلى السكان أسهل. ولكن كثرة الطلاب الذين يقصدون القرية لإجراء أبحاثهم الجامعية، خلق لدى السكان شعورًا بالسأم من هذه "المضايقات" وفقدوا اهتمامهم بالمشاركة في هذا النوع من الدراسات. أمّا الزعيم المحلي الذي سبق وتعرّفت إليه قبل وصولي إلى المكان فكان منشغلًا باجتماعاته المتكرّرة مع مندوبي قطاعات الخدمة العامة وفي حلّ مشاكل القرية اليومية. لهذا كان عليّ التقرّب من السكان في ظروف أكثر خفّة وأقلّ مباشرةً.

لجأتُ إلى المشاركة في المهرجانات أو المناسبات التي تُقام من وقت إلى آخر في القرية. طوّر تواجدي ومشاركتي في هذا النوع من المناسبات من قدرتي على توسيع دائرة علاقاتي، خاصّة وأنّ أي مشاركة خارجية كانت محلّ ترحيب من السكان لمساعدتها في لفت النظر إلى قضايا القرية. مع الوقت، قرّرتُ عدم الاكتفاء بمجرّد الحضور في المناسبات، بل المساهمة في التنظيم والتحضير أيضًا. رحتُ ألتقي تباعًا بالأشخاص الذين أرغب بالتعرّف إليهم، ونجحتُ في خلق روابط مع الكثير منهم. أخبرتهم بسبب تواجدي وبرغبتي بدراسة علاقتهم بالأرض. هكذا بدأت أتلقى دعوات للمشاركة في اجتماعات ترسيم

---

[47] يُطالب شعب الغواراني بأراضٍ تُتيح العيش والوجود الثقافي لحوالي 700 مجموعة منهم موزّعة في ستّة قرى في ضواحي مدينة ساو باولو في البرازيل. خلال عملي البحثي الميداني، حاولت فهم معنى الأرض بالنسبة لشعب الغواراني وتفكيك هذه العلاقة الاستثنائية مع أرضهم. من ناحية أخرى، حاولت تحليل العلاقة بين السكان الأصليين والدولة فيما يخصّ ترسيم هذه الأراضي.

[48] المقصود بالأجنبي هو كلّ من يأتي من خارج القرية ولا ينتمي إلى شعب الغواراني.

الحدود وصار الكلام يأخذ سياقات جديدة، كان منها الحديث في قضايا العدالة والحكم والإدارة. ثمّ بدأوا بدعوتي للمجيء إلى القرية بانتظام. تلاشت الحواجز تدريجيًّا، وصار الأهالي يعرضون عليّ البقاء لوقت أطول والنوم في منازلهم إذا لزم الأمر. ساعدني هذا الانخراط التدريجيّ في حياتهم اليومية على فهم طبيعة العلاقات بينهم، وعلى قراءة أنماط الحياة الاجتماعية من داخل المجتمع نفسه: أدوار الأشخاص والروابط والشركاء والنزاعات والقضايا. تمكّنت من خلق مساحتي الخاصة في يوميات هذه البيئة، فأسهم هذا في تحسين نوعيّة علاقاتي وأمّن لي قراءة أفضل لسياقات البحث. كلّ ما أردته في هذه المرحلة كان التمكّن من بناء علاقات متينة. لهذا كان من المهم تعلّم الانتظار، وعدم الانسحاب بمجرّد أن تصلنا إشارات بأنه لا مكان لنا بين الأشخاص الذين نرغب بالتواصل معهم.

في أحد الأيّام وقع حادث في المقبرة التابعة للقرية. أثار الأمر صدمة السكان ونشبت على إثره خلافات كثيرة. لهذا تمّ استدعاء "الشامان"[49] إلى اجتماع سريع بهدف الاستماع إلى رأيه. أظهرت اهتمامي بالمشاركة في هذا الاجتماع، لكن كان الأمر صعبًا كوني "أجنبية" من خارج القرية ومن غير السكان الأصليين. لهذا بقيتُ في أحد المطابخ القريبة من مكان انعقاد الاجتماع، لتدوين بعض الملاحظات الميدانية ولطهو الطعام. حضر صبي في عمر المراهقة، وراح يشارك معي تصوراته ورأيه فيما حدث في المقبرة. ثمّ تبعته ابنة عمّه لموافاتنا بإجراءات "الشامان" ولتبادل الآراء معنا. توالت الأحاديث إلى أن حضر أحد الزعماء المحليّين وانضمّ إلينا وشرح الموقف

[49] هو الوسيط الذي يتولّى المسائل الروحانية وطقوس الشفاء، وهو المسؤول عن التوسّط بين ما هو بشريّ وغير بشريّ، بين الأحياء والأموات وتفسير علامات الآلهة. إضافة إلى ذلك، لديه قدرات على تحليل ما هو وراء الواقع الماديّ ويُقدّم النصائح لحلّ النزاعات.

كاملاً. سمحت لي هذه الآراء والتصورات المختلفة في فهم وتوضيح الأدوار الاجتماعية، والتدابير المُتخّذة في التنظيم الاجتماعي للقرية. ما حصل كان فرصة لفهم أهميّة المقبرة وأصل مفهوم الأرض عند السكان.

لكن الحضور اليوميّ ليس كافيًا من أجل فهم المجتمع قيد الدراسة، أو لتعزيز علاقة الباحث بالأشخاص محور دراسته. ثمّة تفصيل آخر على نفس المقدار من الأهميّة، وهو استعدادنا للتعاون. عندما ندخل في مرحلة من التبادل والمشاركة، وليس فقط مطالبة الآخر بمنحنا الاهتمام والمساهمة في عملنا، تتلاشى الحواجز بسرعة أكبر. في هذا الإطار، يشرح عالم الأنثروبولوجيا البرازيلي داماتا ضرورة تطوير التعاطف[50] مع الأشخاص الذين يُحاورهم الباحث من أجل إنتاج محتوى ذي قيمة "لا نحصل على البيانات إلّا حين يتبادل الجانبان مشاعر التعاطف"[51]. من أجل الوصول إلى معلومات أكثر دقّة ووضوحا لا بُدّ من خلق جو من التبادل. يجب مشاركة المهام مع المجموعة والإنصات وتبادل الحديث حول أفكار لا صلة مباشرة لها بالموضوع المركزي. سيسمح هذا بتحسين مستوى التواصل وبناء الثقة، وهو ما يجعل الأشخاص الذين نُحاورهم راغبين بالاستفاضة والدخول في عمق التفاصيل.

توقيت السؤال والمشاهدات

طوّرت الأنثروبولوجيا المنهج الإثنوغرافي طمعًا في استسقاء موضوعاتها

---

[50] التعاطف أو المواجدة أو التواجد النفسي (empathy) هو إظهار القدرة والرغبة على رؤية الواقع من منظور الطرف الآخر وتفهّم منطلقاته، وهي كلمات تستخدم في مقابل كلمة "الشفقة"(sympathy) التي لا تتضمّن بالضرورة فهم الموقف بمختلف حيثياته.

[51] DA MATTA, Roberto. 1978. "O ofício de etnólogo, ou como ter ‘anthropological blues’". In A Aventura Sociológica, edited by NUNES, E. O. Rio de Janeiro: Zahar.

من وجهات نظر السكان الأصليين وأفكارهم[52]. في هذا الإطار يقول مالينوفسكي: "أفهم وجهة نظر المواطن الأصلي وعلاقته بالحياة لتحقيق رؤيته لعالمه"[53]. من أجل هذا تقوم الإثنوغرافيا على تقنيات الملاحظة والمحادثات غير الرسمية (العفوية) بصفتها مصادر رئيسية لجمع البيانات، إضافة إلى المقابلات السياقية والعشوائية. كما تقوم أيضًا على تقنيّة الانغماس الكامل في المكان أو الموقف قيد الدراسة. الإثنوغرافيا هي ترجمة للمعاني، وتهدف إلى تقريبنا من الهياكل الأخرى للغة والفكر. علماء الأنثروبولوجيا يعملون على التفسير، إنهم "مفسّرون"[54]، وكذلك هم الصحفيون. لكن في بعض الأحيان ستسود هذه التفاعلاتِ الميدانيةَ البحثيةَ حالةٌ من اللَّبس وانعدام الفهم، وهذا ما يحصل غالباً عندما لا يصل جميع الأطراف الى الالتقاء الكامل في اللغات والأفكار[55].

يُعدّ طرح السؤال في الوقت المناسب أمرًا بالغ الأهمية من أجل تفسير أفضل، ولكن يصعب الوقوع على هذه اللحظة المناسبة. عندما بدأت دعوتي للمشاركة في مظاهرات شعب الغواراني المُطالِبة بأرضهم، شعرتُ

---

[52] GEERTZ, Clifford. 1973. The Interpretation of Cultures. New York: Basic Books.
LAPLATINE, François. 2015. La description ethnographique. Paris : Armand Colin.
MALINOWSKI, Bronislaw. 1922. Argonauts of the Western Pacific. London: Routledge and Kegan Paul.

[53] MALINOWSKI, Bronislaw. 1922. Argonauts of the Western Pacific. London: Routledge and Kegan Paul. P :24

[54] LEVI-STRAUSS, Claude. 1983. Structural Anthropology II, translated by Monique Layton, 1976. Chicago: University of Chicago Press.
CLIFFORD, JAMES. 1988. The predicament of culture: twentieth-century Ethnography, Literature, and Art. Cambridge: Harvard University Press.

[55] GEERTZ, Clifford. 1973. The Interpretation of Cultures. New York: Basic Books.

بالامتياز وبالتقاط فرصة استثنائية. كانت النتائج مثمرة وإيجابية، ولكن كنتُ أشعر بوجود ثغرة ما تحرمني من تفسيرات وتحليل أفضل.

من خلال توالي النقاشات، تعززت أمامي فكرة أنّ الأرض "مقدّسة"[56] بالنسبة لشعب الغواراني. لهذا قرّرت المشاركة في الاجتماعات التي تجري في أماكن العبادة. ساعدتني هذه اللقاءات على فهم ما تعنيه الأرض بالنسبة للسكان الأصليين، وتحديدًا شعب الغواراني. كما ساهمت في فهمي للعديد من الجوانب الرمزيّة الكامنة وراء مطالبتهم بها. حققت تقدّمًا في عملي بسبب العلاقات التي تمكّنت من بنائها في دور العبادة.

قامت منهجية البحث على الملاحظة التشاركية والنقاشات العفوية وكذلك على المقابلات السياقية والموجّهة. لكن خلق التفاعل مع المشاركين يحتاج وقتًا، خاصة وأن تنوّع وضخامة المواد التي يجري جمعها تجعل التحليل والفهم شاقاً وطويلاً.

لكن الوقت وكثرة المواد يجعلان موضوع البحث أكثر وضوحًا، ويُسهّلان عملية الجمع اللاحقة. يتمخّض عن عفوية اللحظات خلال التواصل اليومي كلامٌ أكثر ثراءً وأقلّ تحفّظاً كما يجري عادة في المقابلات. لهذا تعتمد الملاحظة التشاركية على المحاكاة: "يُعدّ الانخراط في الحياة اليومية للأشخاص المرصودين ومشاركتهم عملهم، وأحاديثهم واحتفالاتهم أمراً ضروريّاً لأي شخص يريد فهم رؤيتهم للكون، وفهم دوافع أفعالهم ونظام قيمهم"[57].

---

[56] يشرح ميرسيا إلياد، 1961، المُقدّس بأنه شيء يتجاوز العالم، ولكنه يجعله موجودًا وحقيقيًا.

[57] RIVIÈRE, Claude. 1995. Introduction à l'anthropologie. Paris : Hachette. P : 22.

لكن غالبًا ما ستكون هناك فجوات في الملاحظات الميدانية؛ لأنه من الصعب تذكر محتوى المحادثات بتفاصيلها كاملةً. لهذا من الضروري التوقف مؤقتًا والاختلاء بالنفس لتدوين بعض الكلمات والأفكار والتصورات، والعودة إليها في نهاية اليوم والتوسّع في شرحها وتطويرها. يخلص كاردوسو دي أوليفيرا (1995) إلى أن العمل الإثنوغرافي يقوم على النظر والإصغاء والكتابة؛ فتدوين الحقائق والمناقشات وكذلك التصوّرات والمفاهيم أمر بالغ الأهمية في العمل الإثنوغرافي؛ إذ تُبرز التصورات الكليّة الروابط بين الأفكار الجزئية وترسم الصورة النهائية لبحثنا.

استخدمت المقابلات السياقية الموجهة في بحثي مع بعض الأشخاص الذين لم أتمكّن من مقابلتهم في ظروف عفوية. يُزوّدنا هذا النوع من المقابلات - التي تُستخدم على نطاق واسع في الصحافة - بمواد موجزة وواضحة وسهلة التحليل. إلا أن التدخل في سياق المقابلة عبر تعليقات توضيحية أو تسجيل المقابلة، قد يدفع المشاركين أحيانًا إلى التعبير عن أنفسهم بحذر أكبر. لاحظت أن المتحدثين الرئيسيين، الذين نجحت في إقامة علاقات ودّية معهم قد اتخذوا موقفًا متحفظًا عندما سألتهم عن موافقتهم على تسجيل أو تدوين ملاحظات خلال لقاءاتنا. عندما أبدأ التسجيل أو التدوين خلال أي محادثة تتكرّر الجُمل ويبدأ الكلام يأخذ طابعًا رسميًّا.

هل ثمة لغة محايدة؟

يُعتبر محتوى المقابلة أكثر موضوعية وحيادية من التقارير المبنية على الملاحظات الميدانية. لكن لا بُدّ من التذكير، بأنّ طريقة عرض السؤال وشكل الكلمات المُختارة التي تعتمد على مجموعة من الموضوعات والمعاني الاجتماعية

والشخصية، قد تؤثّر على محتوى الإجابة. يؤكّد عالم الأنثروبولوجيا البرازيلي داماتا (1993) أننا لم نعد نؤمن بلغة محايدة. يعكس شكل ومحتوى أسئلتنا قيم مجتمعنا الحالي، ويتأثر كذلك بمنطلقاتنا المبنية على وضعنا الاجتماعي. بالإضافة إلى أن فهم الباحث للإجابات التي حصل عليها يعتمد على سياقاتها المسبقة، وهذا يعني أن شكل ومحتوى أي مقابلة ليس محايداً. يُحاول الصحفيون وعلماء الأنثروبولوجيا استكشاف الموضوع مسبقًا لإعداد موضوعات البحث والأسئلة، وهذا ما يجعل للمقابلة خطة وهدفًا قبل أن تبدأ.

يرى علماء الأنثروبولوجيا المعاصرون أنه لا توجد بيانات مستثناة في العلوم الاجتماعية[58]؛ إذ يتأثّر المحتوى المُنتج بالموقع الاجتماعي لطرفي الحوار، وبالسياق الاجتماعي الذي يحدث فيه التفاعل. لهذا يجب علينا الانتباه إلى العوامل التي تؤثر في عملية الحصول على المعلومات ومحتواها وكيفيّة تحليلها: أي النظر في مقدماتنا وأحكامنا المُسبقة. نحتاج إلى الوضوح الشديد في تحديد وجهة نظرنا وظروف وكيفية إجراء البحث، وهو ما سيسمح بإنتاج بيانات أكثر دقة وموثوقيّة: "بالإضافة إلى ذلك، فإن الحل الملموس للمشكلة قبل أي ممارسة هو أن نَعدّ أنفسنا موضوعاً من مواضيع الدراسة، وأن نشرح شروط البحث ونوضّح علاقتنا بالموضوع"[59].

---

[58] BASTIDE, Roger. 1971. Anthropologie appliquée. Paris: Payot.

[59] LÉZÉ, Samuel. 2007. "Réflexivité". In Abécédaire de Pierre Bourdieu, edited by Cazier. Paris: Librairie Philosophique J. Ivrin.

أحد العوامل المهمة التي تؤثر على شكل ومحتوى المعلومات التي نجمعها هي كيف يرانا محاورونا، سواء كنا باحثين أو صحفيين. تعتمد هذه النظرة على وضعنا الاجتماعي الذي يتمّ تحديده من خلال: مُحدّدات الاختلاف الاجتماعي (الجندر، العرق، الطبقة، الجنسية، وغيرها من أوجه التباين)، والمقارنة بين وضعنا الاجتماعي ووضع المشاركين بناء على هذه المحدّدات. إضافة إلى ذلك، يُمكن أن يتأثّر المشاركون بصورة المؤسسة التي يجري البحث باسمها أو التي يُمثّلها الباحث. في هذه الحالة، يجب خلق علاقات جديدة بعيدة كل البُعد عن الصورة المرسومة. سأوضّح أدناه كيف أثّرت هذه الصورة المُسبقة على اللحظات الأولى من دراستي الميدانية الثانية.

جودة المحتوى عبر النظر والإنصات

عملت في إطار دراستي الثانية محللةَ تنميةٍ مُستدامة في ولاية ساو باولو في البرازيل، وذلك في مجتمع ريفي يُعرف باسم "كويلومبو". كان عملي يقوم على تنظيم ومراقبة تنفيذ مشاريع التنمية الاجتماعية والاقتصادية. كنت أعقد اجتماعات منتظمة مع السكان والمسؤولين المحليين في هذه القرية. هدفت هذه الاجتماعات إلى مناقشة تنفيذ مشاريع التطوير وتقييم الخدمات العامة المقدمة في الموقع. لهذا اعتاد السكان على التحدث معي في سياق رسمي حول مطالب المجتمع من الحكومة. في هذا الوقت، كنت طالبة ماجستير في التعليم الريفي والإيكولوجيا الزراعية في جامعة ساو باولو. كان موضوع بحثي هو التنظيم المشترك للجهود الجماعية في مزارع الكويلومبو، وعلاقتها بالتشريعات البيئية المحلية. كنت معروفة بين السكان، وذلك بسبب عملي موظفةً حكومية. لهذا كانت الخطوة الأولى - لدواعي

النزاهة الأخلاقية - هي إبلاغ الجميع بنيّتي إجراء البحث، وأوضحت لهم أن البحث لا يرتبط ارتباطًا مباشراً بعملي الحكومي.

خلال العمل على بحثي الجامعي، احتجتُ إلى إجراء بعض المقابلات والاستفادة من الألفة في تنظيم المناقشات مع السكان. استجاب كثيرون بشكل إيجابي لطلب المقابلة إلا أنهم أجابوا عن أسئلتي بإيجاز وبشكل مُحايد، تماماً كما يحدث في أي حديث مع موظف رسميّ. غالبًا ما ربطوا أسئلتي ببعض مطالبهم التي يقدمونها إلى الحكومة. كان من الصعب الحصول على معلومات حول مواضيع لا علاقة لها بعملي، على الرغم من تأكيدي المُستمر بمخاطبتي لهم بصفتي باحثة جامعية، وليس بصفتي موظفة حكومية. عرفت أنه لفصل بحثي عن عملي الحكومي عليّ بناء علاقات جديدة وعدم الاعتماد على العلاقات التي سبق وكوّنتها. هذا الموقف المتحفظ من قبلهم كان بسبب علاقة العمل السابقة معهم. مع العلم أن الأمر قد يحصل مع أي باحث بسبب السياقات غير المألوفة لمقابلاته.

بدأت في زيارة القرية في عطلات نهاية الأسبوع وفي أوقات الأعياد بهدف بناء علاقاتي من الصفر، وللتفاعل بأريحية أكبر وكذلك للتمكّن من مناقشة بحثي بشكل أسهل. ساهمت هذه الزيارات غير الرسمية في فرض حضوري بصفتي باحثة وليس موظفة حكومية. في هذا الإطار يقول أوليفيرا: "يؤدي الباحث دورًا يمكن أن يرحب به المجتمع المرصود إلى درجة تتيح له أن ينال قبول أعضاء ذلك المجتمع"[60]. أثناء حواراتي مع الفاعلين، أبديت اهتمامًا بالقضايا المختلفة التي تُثير اهتمامهم سواء تعلّقت ببحثي أم لا. أمّنت

[60] de Oliveira, RC, & Ruben, GR (1995). Styles of anthropology . Unicamp Press.

لي هذه المحادثات العشوائية معلومات خصبة وواسعة، كما ساعدتني في تكوين مجموعة من المعارف التي نادرًا ما أحصل عليها من خلال المقابلات الرسمية. تُوفّر لنا المشاركة في الحياة اليومية المحليّة وإجراء محادثات مفتوحة وفرةً هائلة من البيانات. أمّا جودة العمل النهائي فستعتمد على قدرتنا على تحليل هذه البيانات واستخلاص المفيد منها للموضوع قيد البحث. إنّ قوام العمل الأنثروبولوجي الجيد هو "النظر والإنصات الجيّدَين"[61]. والأمر ذاته ينطبق على الصحفيين؛ ذلك أن الملاحظات الثاقبة ومهارات الاستماع الجيدة تسمح بإنتاج محتوى فريد وذي قيمة.

التفاعل الميداني والسؤال الذي يصير أسئلة

غالباً ما ندخل ميدان البحث في محاولة لفهم قضية أو ظاهرة محدّدة. خلال عملنا ستظهر لنا أسئلة أخرى تحتاج إلى المعالجة وقد تسهم في تغيير التوجه العام للبحث. عند وصولي إلى مجتمعات "كويلومبو" كنت مهتمة بالمعرفة النباتية في المجتمعات التقليدية. مع الوقت، أدركت أن الموضوع الأكثر أهمية هو استئناف الجهود المشتركة في زراعة المحاصيل التقليدية. أظهرت لي تجربة الانغماس في المجتمع، مدى أهمية استئناف الجهود المشتركة لتاريخ المجتمع وثقافته وتقاليده، وصار السؤال محوريّا في عملي البحثي. يحدث هذا كثيراً في مجال الأنثروبولوجيا، حيث يثير التفاعل مع العمل الميداني مزيدًا من الأسئلة.

في محاولة لفهم أفضل وأكثر عمقًا لموضوعي، شاركتُ في إنجاز العديد من

---

[61] CARATINI, Sophie. 2012. Les non-dits de l’anthropologie. Vincennes : Thierry Marchaisse. P : 214.

المهام في المزارع. شكّلت محادثات طريق الذهاب والإياب مع السكان مادة صلبة وأساسية لي، كونها ساهمت في تكثيف بياناتي، خاصة وأن هذه الأحاديث دارت تمامًا حول الموضوع. لكن التقاط مثل هذه اللحظات (التي يميل فيها الناس إلى التكلّم بشكل عفوي) هو اختصار لكثير من الوقت، وآلية فعّالة للحصول على معلومات ذات قيمة. من أجل خلق هذه اللحظات العفوية يجب عدم التركيز فقط على الموضوع الأساسي بل التطرّق إلى الأحداث الآنية التي تشغل سكان المجتمع من دون الخوف من ضياع الموضوع المركزيّ. ومن الممكن خلق مجموعات تركيز بشكل نترك فيه الأشخاص يتبادلون وجهات النظر في مجموعة من المواضيع. مجموعات التركيز[62] هذه هي مصدر منهجي يُستخدم على نطاق واسع في الأبحاث في مجال التسويق أو التعليم، يتمّ فيها جمع واختيار مجموعة من الأشخاص بناءً على معايير معينة لمناقشة موضوع تمّ التحقيق فيه. يوفر هذا النوع من اللقاءات قدرًا واسعًا ومتنوعًا من المعلومات في فترة زمنية وجيزة.

وهم السعي وراء الموضوعية

سيواجه العمل البحثي العلمي أو حتى التحقيقات الصحفية الكثير من القيود، سواء من حيث الوقت والميزانية أو التغطية وما إلى ذلك. ولكن ما يُقيّد الباحث ليس تماماً ما يُقيّد الصحفي؛ فالوقت المتاح لباحث في مجال الأنثروبولوجيا يتجاوز بأشواط الوقت المُعطى للصحفي لإنتاج محتواه. علّق أحد المراسلين في ندوة أنثروبولوجية قائلا: "الباحث في مجال الأنثروبولوجيا

---

[62] KRUEGER, R. A. 1988. Focus groups: A practical guide for applied research. California: Sage Publications.

MAN, Alfred. E. and MCDONALD, Susan Schwartz. 1988. The group-depth interview: Principles and practice. New Jersey: Prentice-Hall.

هو صحفي لديه مهلة زمنية تمتدّ إلى سنتين"[63]. ومع ذلك، فإن فترة بناء علاقات متينة مع المجموعة التي نريد تصويرها أمر بالغ الأهمية للحصول على معلومات نوعية معمّقة. يعتمد منهج الانغماس في البحث على "المشاركة في الفعاليات والمناسبات الاجتماعية لتكون قادرًا على الملاحظة والمراقبة ولكي تكون قادرًا على الفهم."[64]

يوجد طريقة يُمكن للصحفيين تبنّيها لفهم ديناميكية العلاقات وآليّاتها في مجموعة أو خلال موقف ما، وهي التركيز على تحليل حدث واحد ذي دلالات. يُمكن لبعض الأحداث المهمة أن تشير بإيجاز إلى البنية الاجتماعية والأدوار والتفاعلات في السياق الاجتماعي. استكشف عالم الأنثروبولوجيا ماكس جلوكمان افتتاح جسر في ما كان يعرف سابقًا باسم مملكة زولولاند في جنوب أفريقيا. حلّل جلوكمان (1940) انطلاقاً من هذا الحدث التطور الرأسمالي في هذه المنطقة والتفاعلات الاستعمارية للصراع والتعاون ما بين البِيض والسكان الأصليين. اتّبعتُ هذه الطريقة لتقدير التفاعلات بين شعب الغواراني والحكومة البرازيلية في قضية ترسيم حدود أراضيهم. تلقيتُ دعوة من الغواراني للمشاركة في مخيم كبير للسكان الأصليين لمناقشة الترسيم وتنظيم المظاهرات في العاصمة برازيليا. ساعدتني هذه المناسبة في تحليل العلاقة بين السكان الأصليين والحكومة، وفي فهم واقع ترسيم حدود أراضي هؤلاء السكان في البرازيل[65]. وهنا أيضاً، كانت

---

[63] GRINDAL, Bruce T. and RHODES, Robin.1987. "Journalism and anthropology share several similarities". In Journalism Educator, v. 41, 4 -33.

[64] CARATINI, Sophie. 2012. Les non-dits de l'anthropologie. Vincennes : Thierry Marchaisse. P :100.

[65] في يونيو/حزيران 2021، وقع حدث ذو أهمية وفائدة لتحليل العلاقة بين الحكومة البرازيلية والسكان الأصليين في عملية ترسيم الأراضي؛ إذ تمّ تعيين حفيد أحد سارقي أراضي السكان الأصليين - اعتماداً على مستندات مزورة - وزيراً للبيئة. كان جَدّ الوزير الجديد يُحاول منذ حوالي عشر سنوات طردَ شعب الغواراني من أرضهم التي كنت أجري عليها بحثي.

مساهمتي واستفادتي من هذا الحدث ممكنة بسبب العلاقات التي بنيتها في ميدان البحث سابقاً، واستعداد المشاركين للتعاون معي.

ما زال استخدام الأسلوب الإثنوغرافي في مجال الصحافة محلّ جدل كبير[66]. لكن الحوار ما بين الاختصاصَين (الأنثروبولوجيا والصحافة) مفيد ومثمر لكليهما؛ فعلى الرغم من الفوارق إلا أن كليهما يُمثّل وسيطاً لنقل المعلومات ويشرح ماهيّة البشر. تُنتج الأنثروبولوجيا محتوى كثيفًا حول مجموعات معينة في محاولة لفهم البشر عبر استكشاف تنوعهم وخصوصياتهم. وقد اكتسبت بعض الأعمال الإثنوغرافية شهرة في القرن الماضي إلا أن النقاش فيها لا يزال محصورًا في الدوائر الأكاديمية. "يهتم علماء الأنثروبولوجيا بتقديم تصوّرهم للخبرة البشرية، وينشرون النتائج التي توصلوا إليها في مجلات علميّة متخصصة، وبلغة لا يفهمها إلا مجموعة محدودة من علماء الاجتماع"[67].

في المقابل تتفوق الصحافة في مهارات التواصل، لكنها غالبًا ما تنتج محتوى ضعيفًا بسبب الحاجة إلى إنتاج كمية كبيرة من المعلومات في فترة زمنية قصيرة، أو لسعيها الساذج وراء الموضوعية. لا شك أن نظرتنا للقضايا

---

[66] BIRD, S. Elizabeth. 1987. "Anthropological methods relevant for journalists". In Journalism Educator, vol. 4, 5 – 10.
CRAMER, J.M. and MCDEVITT, M. 2004. "Ethnographic journalism". In Qualitative Research in Journalism: Taking it to the streets, edited by Iorio, S.H., 127–143. London: Routledge.
GRINDAL, Bruce T. and RHODES, Robin.1987. "Journalism and anthropology share several similarities". In Journalism Educator, v. 41, 4 -33.
HARRINGTON, W. 2003. "What journalism can offer ethnography". In Qualitative Inquiry, vol. 9, 90 – 104.

[67] GRINDAL, Bruce T. and RHODES, Robin.1987. "Journalism and anthropology share several similarities". In Journalism Educator, v. 41, 4 -33.

وتفاعلنا معها سيتركان أثرهما على المحتوى المنتج. وبينما تؤمن العديد من المدارس الصحفية بإمكانية الوصول إلى الموضوعية الكاملة في المصادر ومعالجة المحتوى، ترى مدارس أخرى أن التقرير الصحفي ما هو إلا تأويل للأصوات والسياقات (كاري 1969). أما الأنثروبولوجيا المعاصرة فتفترض تحيزها المسبق، وبالتالي تتعامل مع بياناتها بجدية[68] من دون ادّعاء الوصول إلى حقيقة مطلقة واحدة، بل بالسعي لتصوير تعددية الآراء ووجهات النظر. لتحقيق ما سبق، لا يجب أن تخلو هذه الممارسة من علاقة جدليّة تقترب وتبتعد في نفس الوقت ممّا نودّ تحليله ودراسته. يرتبط هذا في طرحنا الواضح لمعرفتنا السابقة بالموضوع والقُرب العلائقي والأيديولوجي والاجتماعي والرمزي من المجموعة قيد البحث. أمّا الغاية وراء كل هذا فهي توضيحُ السياق الذي تحدث فيه التفاعلات وتحديدُ المواقع الاجتماعية وخلفيّات أطراف الموضوع كافة.

في النهاية، علماء الأنثروبولوجيا والصحفيون هم مترجمون وحكّاؤون يروون الأفكار والحقائق والمعاني. تؤدي جودة الملاحظات ودقة الإصغاء دورًا مهما في بناء سرديّات قوية وجذابة؛ فالنص ذو المعنى يحمل تفسيرًا فريدًا للخطابات وسياقاتها. أما عملية خلق الألفة والتعاطف وبناء ثقة مع محاورينا - في محاولة لإذابة حواجز التواصل - فقد تساعد في استخلاص بيانات أفضل على صعيد شموليتها ومدى القدرة على الاعتماد عليها. وفي المحصلة يكون لدينا صورة نهائية أكثر تفصيلاً وأقل سذاجة من تلك الناتجة عن تحليل التصريحات غير المعمّقة للمقابلة؛ فهذه العلاقات هي ما يسمح للصحفي بتقديم نص موجز وغني وشامل.

---

[68] BOURDIEU, Pierre. 2001. Science de la science et réflexivité. Paris : Raisons d’agir. DESCOLA, Philippe. 1993. Les lances du crépuscule. Paris : Terre Humaine.

مقاربات أنثروبولوجية لعالم الانترنت: دعوة إلى عالم الويب

ماريون بروتو

أستاذة مساعدة في علم الأنثروبولوجيا في قسم العلوم الاجتماعية والسلوكية في الجامعة الأميركية في الكويت

شكّل ظهور تقنيات التواصل الحديثة مصدرًا لتحولات كبيرة في المجتمعات الراهنة؛ سواء تعلّق الأمر بالتعاملات الاجتماعية العادية، أو بالانتشار الواسع للمعرفة والمعلومات، أو حتّى بأنها غدت مظهرًا أساسيًّا لعصر العولمة الحالي. لنأخذ مثالاً جائحة كورونا وما تلاها من قيود، أو ثورات الربيع العربي وما لحقها من زيادة في موجات الهجرة في منطقة حوض البحر الأبيض المتوسط، بالتحقيق نجد أن استخدام الأدوات الرقمية شكّل جزءًا أساسيًا من هذه الأحداث، كمُحرّك أو كمُرافقٍ لها. وبالنسبة للصحفيين والباحثين في مجال الأنثروبولوجيا، وغيرهم من الذين يحتاجون إلى ميدان (بالمعنى التفاعلي مع مجتمع وأفراد)، مثّلت شبكة الانترنت المحور الذي أعاد تشكيل وسائل جمع البيانات؛ حتّى إنها منعت الكثيرين من القيام بعملهم المتمثّل في التفاعل اجتماعيًّا على "أرض الواقع".

يُعدّ الأمر تحديًّا ذا أهمية بالغة للصحفيين الذين يسعون إلى استعادة الواقع الاجتماعي والتحوّلات الطارئة عليه، وكذلك للباحثين في مجال الأنثروبولوجيا الذين توجّب عليهم تعديل أدواتهم المنهجية بالقدر ذاته، وهذا ما يفرض معضلة ذات بُعدين: الأول هل يمكن للصحفيين بوصفهم عاملين في الميدان الاكتفاء بالمحتوى الموجود على شبكة الإنترنت من أجل توثيق الأحداث التي يتعاملون معها؟

والثاني كيف يُمكنهم فهم تفاصيل صناعة الحدث الذي لا يستطيعون الوصول إليه، من دون تجاهل مدى ارتباطه بما يحدث على شبكة الإنترنت، أو حتى فهم الأحداث التي يمكن أن تُطلقها شبكة الإنترنت نفسها؟

يهدف هذا النصّ إلى توفير عناصر الإجابة على هذين السؤالين، من خلال

تقديم نظرة عامة على أنثروبولوجيا الإنترنت وأساليبها، أو ما يُعرف اليوم باسم "الويبنوغرافيا" [69](Webnography) كما أنه دعوة للصحفيين للتعامل مع انتشار المعلومات على الإنترنت، ومحاولة تجديد فهمهم لممارسات العمل الميداني، وذلك عبر دراسة وعرض الآثار الرئيسية التي يتركها الإنترنت على حياة الناس.

تُعدّ "الويبنوغرافيا" مجالاً حديثًا نسبيًّا، فهي تستفيد من البحوث في مجال الاتصال[70] ومن الأساليب البحثية التقليدية في مجال الأنثروبولوجيا. ولأن تطبيقها يعتمد على كل عنصر ونطاق عمل وكل شخص في الميدان، تُعدّ الويبنوغرافيا وسيلة إبداعية واستكشافية، أشبه بالتجميع[71] (brico-lage). هذا ما سأتحدث عنه في الجزء الأول من خلال العودة إلى أولى الاكتشافات في هذا المجال، وكيف أن العاملين في الميدان عليهم التعامل مع العلاقة بين "الاتصال بشبكة الإنترنت" (online) و"الانقطاع عن شبكة الإنترنت" (offline).

كما سأتناول الجانب الفنيّ المتعلّق بشبكة الإنترنت وما ينطوي عليه من تعقيدات في الوصول إلى البيانات وإجراء التحقيقات؛ وسأناقش أخيرًا

---

[69] الويبنوغرافيا (Webnography) هي منهج بحثي مستمد من الإثنوغرافيا، يُستخدم لدراسة التفاعلات والسلوكيات الثقافية للمستخدمين في البيئات الرقمية، مثل المنتديات، ومواقع التواصل الاجتماعي، والمجتمعات الافتراضية، مع التركيز على فهم السياقات والمعاني التي ينشئها الأفراد عبر الإنترنت.

[70] Markham, Annette. "Remix Cultures, Remix Methods: Reframing Qualitative Inquiry for Social Media Contexts". In: Norman Denzin and Michael Giardina. Global Dimensions of Qualitative Inquiry. Left Coast Press, 2013. pp. 63-81.

[71] Kincheloe, J. (2001). "Describing the bricolage: Conceptualizing a new rigor in qualitative research."Qualitative Inquiry, 7(6): 679-692.

أهمية الجوانب الأخلاقية وقضية الخصوصيّة بوصفها واحدة من الفوارق الأساسية التي تميّز العمل عبر استخدام شبكة الإنترنت عن العمل الميداني غير المتصل بشبكة الإنترنت، وذلك عبر تقديم أمثلة ملموسة.

1. الإنترنت: شيء واحد بزوايا متعددة!

من أجل النظر في قابليّة تطبيق الممارسات الأنثروبولوجية في العمل الصحفي من المهمّ -بدايةً- أن نفهم مواضع الشبه في المقاربات الخاصة بكلّ من هذين الحقلين. فالصحافة تُعنى بشبكة الإنترنت بوصفها عنصرًا اجتماعيًّا، وتُركّز بشكل عام على المواقع أو التطبيقات مثل مواقع التواصل الاجتماعي، والمواضيع الأكثر شيوعًا عليها مثل "الترند" (trends) وطرق تفاعل المستخدمين معها، وأكثر ما يهمّها هي الأحداث التي ترصد على شبكة الإنترنت وتكون محصورة فيها. ويُطبّق هذا النهج من خلال طرق عرض الأخبار العاجلة ونشرها (في المواقع الإلكترونية ووسائل التواصل الاجتماعي ومن خلال استخدام الـ "تريندز" أو التوجهات والـ"هاشتاغات") واستكشاف كيفية تفاعل الجمهور معها، وصولاً إلى السمات الخاصة بهذا الجمهور. بمعنى آخر، يهتمّ الكثير من الصحفيين بالأحداث التي يكتشفونها من خلال اهتمامهم بالأشخاص المحيطين بالحدث نفسه، وهو ما يقودهم إلى اعتبار الإنترنت وسيلةً للتواصل. وهذا اختلاف أساسيّ مُتعلق بكيفية استخدام الأنثروبولوجيا للإنترنت، وفي كيفية النظر إلى الأحداث والأخبار، فالإنترنت بالنسبة للباحثين في مجال الأنثروبولوجيا مجرد "أقمار اصطناعية" تدور حول المجتمعات المدروسة. هي لحظات ذات معنى تدخل في تكوين الثقافات والظواهر الخاصة بمجموعة ما، وذلك ينطبق على التعبير عن فعل جمعي أو عن الشعور بالانتماء مثلًا، فالأمر المهم بالنسبة

للأنثروبولوغ هو العثور على أنماط انتظام وتكرار بدلًا من الأحداث المستجدة والاكتشافات[72]، الأمر الذي يضعهم على النقيض من وجهة النظر التي يتبناها الصحفيون.

يسعى الباحثون في مجال الأنثروبولوجيا إلى جمع ردود أفعال المجتمعات تجاه الأحداث، كما لو كانت هذه الأخيرة محورًا أو مادة مركزية في عملية بناء الهويات والثقافات. وبهذا المعنى، تحظى الأحداث بأهمية مماثلة لتلك التي تحظى بها القطع الأثرية والعادات والقوانين أو الأعراف والاحتفالات وما إلى ذلك، فهي شكل واحد من ضمن أشكال أخرى متعددة للتعبير عن الخصوصيات الثقافية، وهي نتيجة للخطابات المؤطرة بسياقها. وهكذا فإن التعامل مع الإنترنت على طريقة الأنثروبولوجيا يحدده هدفٌ أساسي، ألا وهو فهم كيفية تطور مجتمع ما، أو مجموعة ما، وثقافة ما، وهوية ما من خلال استخدام أجهزة إلكترونية ومنصات افتراضية. فالمحتوى الذي يُعرض عليها يُعدّ بالقدر ذاته شكلًا من أشكال إنتاج الخطاب والإنتاج الثقافي المتجذر في مجتمعه. فسؤال الدراسة الذي يُمكن أن يُلخّص ما يتقصّى عنه العاملون في مجال الويبنوغرافيا هو التالي: ما الجديد الذي يُقدّمه الإنترنت فيما يتعلق ببناء التعبير عن ثقافة أو مجموعة ما؟

أستعرض هنا مثالًا ملموسًا يُشيع فكرة أن البيانات من قبيل التعليقات التي تُنشر في منتدى عام لا يتطلب الدخول إليه فتح حساب شخصي، تُعتبر في عداد الملكية العامة، ومن ثم فهي تُعدّ مصدرًا للمعلومات يمكن استخدامها بسهولة لأغراض علمية. ونتيجة لذلك فإن الكثير من الباحثين

[72] Bensa, Alban, and Eric Fassin. "Les sciences sociales face à l'événement", Terrain, no. 38 (2002). URL: http://journals.openedition.org/terrain/1888; DOI: https://doi.org/10.4000/terrain.1888

يستخدمون لقطات شاشة من أجل شرح تحليلاتهم، كما هو الحال في قضية فرانزيسكا فاي (2022)[73]. فقد استخدمت فاي في مقال عن الهوية السواحيلية في سلطنة عمان، صورًا للمتحف الوطني وللشوارع التقطتها بنفسها. كما استخدمت لقطات شاشة لحسابات على تطبيق إنستغرام ومقطع فيديو على موقع يوتيوب، وكلا المصدرين كانا متاحين للعامة. اعتبرت منهجيتها سليمة من مُنطلق أن هذه الصور استُخدمت أساسًا لشرح تحليلها، وقد تضاعف تكرار استخدام مثل هذه المنهجية بعد عام 2020 بسبب الإغلاقات في الحدود بين الدول والإجراءات الصحية والحجر الذي فُرض على المجتمعات حول العالم بعد انتشار جائحة كوفيد 19، وهو ما جعل الإنترنت الطريقة الوحيدة للنزول إلى الميدان. ويجب أن نُفرق بين اللجوء الجماعي إلى الإنترنت بهذه الطريقة، والبحث الويبنوغرافي، إذ إن الأول لا يشمل في التحليل التفاصيل والقضايا التي تثيرها وسائل التعبير على الإنترنت، كما أنه لا يشمل الظروف المتنوعة والكثيرة التي تميز الإنترنت.

لا ينظر الباحثون في مجال الأنثروبولوجيا إلى الإنترنت بوصفه مجموعة محددة من الظروف التي تسهم في خلق أشكال جديدة من الثقافات فحسب، بل يرونه أيضًا وسيلة للتعبير بين الناس، وبهذا المعنى فإن التحليل الويبنوغرافي للهوية السواحيلية سيُبنى على البحث في أسباب استخدام إنستغرام أو يوتيوب، والخصائص الاجتماعية للجمهور والمعلّقين، والإطار الزمني للمنشورات، وتخزين البيانات، ووسائل التشفير. بمعنى آخر، إن ما

[73] Fay, Franziska. "'To Everyone Who Told Zanzis That They Are Not Omani': Young Swahili- speaking Omanis' Belonging in Postdiaspora Oman."Arabian Humanities, no. 15 (2022). URL: http://journals.openedition.org/cy/7304; DOI: https://doi.org/10.4000/cy.7304

يجعل المعاينة ويبنوغرافية هو التركيز أوّلاً على الجوانب الفنية، وثانيًا على الجمهور، وثالثًا على: كيف أن كلا العاملين الأولين يُسهمان في إنتاج فهم ثقافي محدّد، وهكذا يراقب استخدام المنصات. ولكن لا يمكن أخذ هذه الجوانب بعين الاعتبار إن لم يعالج الباحثون في الميدان موضوع دراستهم من دون إيلاء انتباه بالغ إلى التفاعل المستمر بين العالمين الحقيقي والافتراضي، إذ إن كلًا منهما يؤثر في الآخر.

2. المراقبة التشاركيّة عبر الإنترنت

إن التعامل مع المحتوى على شبكة الإنترنت يقود الكثير من العاملين في الميدان إلى التحري عن مدى مشروعية منهجيتهم، وأحيانًا مشروعية المحتوى الذي يبنون تحليلاتهم على أساسه، حتى إننا رأينا أن الأدوات التقليدية التي لدينا التي تدربنا على استخدامها يجب أن يُعاد تصميمها لكي تتلاءم مع خصوصية الإنترنت[74]. أما ما يواجه عملنا من تحديات فهو يتمثل بشكل أساسي في حقيقة اعتمادنا على محتوى محصور على شبكة الإنترنت، وأننا محرومون من العمل الميداني الحقيقي أو الحركي، الأمر الذي ينظر إليه كثيرٌ منّا على أنه عامل سلبي يؤثر على جودة عملنا. في واقع شبكة الانترنت، لا يُمكننا إجراء مراقبات من الميدان، ولا أن نشارك في الممارسات الخاضعة للمراقبة، كما لا يمكن للأحاديث العفوية أن تحدث، أو للمقابلات

---

[74] Cupitt, Rebekah. "We Have Never Been Digital Anthropologists."Anthro{dendum}, (2018). URL: https://anthrodendum.org/2018/02/03/we-have-never-been-digital-anthropologists/

Pastinelli, Madeleine. "Pour en Finir avec l'Ethnographie du Virtuel ! Des enjeux Méthodologiques de l'enquête de terrain en ligne."Anthropologie et Sociétés 351, no. 2 (2011): 35-52. DOI: https://doi.org/10.7202/1006367ar

أن تُنظم، والأهم من كل ذلك هو أنه لا يمكننا الشعور بأي ارتباط فعلي بالأحداث التي ندرسها. كما أن ما يُنشر على الإنترنت ليس متاحًا للجميع، ويبرز ذلك أكثر عندما يبحث العاملون في الميدان في مواضيع لا يمكن الحديث فيها مثل العلاقات الحميمة أو السياسة، سواء كان ذلك خاضعًا لظروف قمعية أو لا، ولكن أليس الأمر كذلك في جميع الحالات؟ إن كان العمل الميداني غير المتصل بشبكة الإنترنت متاحًا وأكثر سهولة، ألن ندفع ثمن ذلك من خلال بطء سير العمل والإجراءات الاحترازية والجهد المبذول لبناء الثقة مع من نودّ محاورتهم؟ ألن يأتي ذلك على حساب التخلي عن فرصة الوصول إلى أماكن معينة أو مقابلة أشخاص محددين؟ فحين يتعلق الأمر بالوقت أو الظروف المادية أو الإجراءات القانونية فإن أي عمل ميداني حقيقي ستكون له عقباته.

بدأت محاولات التفكير وإيجاد ردود منهجية على هذه القضايا منذ بداية ظهور الإثنوغرافيا الرقمية، فقد وضع الباحثون الأوائل في مجال الويبنوغرافيا في صميم اهتماماتهم مشروع التعامل مع بناء حياة اجتماعية، ليس من خلال الإنترنت، بل في أن تكون محصورة عليه بوصفه نموذجًا ثقافيًا، ومع التفاعل مع العالم غير المتصل بالإنترنت. فما يُطلق عليه لفظ الإثنوغرافيا الرقمية أو الإثنوغرافيا عبر الإنترنت، أو الويبنوغرافيا، أو في بعض الأحيان النيتنوغرافيا، يُبنى على الاستخدام الكلاسيكي لمنهجيات الإثنوغرافيا التي تجمع أشكالًا متنوعة من المراقبات بعيدة المدى، بالإضافة إلى مراقبة المشاركين، والمقابلات (الرسمية وغير الرسمية)، ويضع في صميم اهتماماته انغماس الباحث في المجتمعات الرقمية. ولكن المتخصّصين في مجال الأنثروبولوجيا ينظرون إلى الممارسات الرقمية على أنها ناتجة عن أنماط محددة من التواصل لا يمكن استنساخها من دون الاتصال

بالإنترنت بسبب غياب المحاورين جسديًّا، وفي ذلك اعتماد كبير على حاستي النظر والسمع أكثر من أي حاسة أخرى[75]، ناهيك عن أن تتبّع الآثار وإمكانية تسجيل العناصر لن تتوفر بدرجة معينة خارج شاشة الجهاز. من أجل كل هذه الأسباب، لا يمكن اعتبار العوالم الرقمية نسخة عن العالم الحقيقي أو امتدادًا له، أو مصدرًا لتوثيقه، ولكن يُمكن النظر إليه على أنه مكان للتعبير عن مبادئ وقيم محددة جميعها لها أسس راسخة في السياقات الثقافية-الاجتماعية[76].

يعدّ كل من دانيال ميلر ودون سلاتر من علماء الأنثروبولوجيا الأوائل الذين أطلقوا هذا النوع من المنهجيات، حيث إنهم بحثوا في الظروف والأوقات والأماكن التي استخدم فيها سكان جزيرة ترينيداد[77] في الكاريبي شبكة الإنترنت، واتضح في بحثهم العلاقة الوثيقة بين الثقافة "الترينيدادية" من جهة واستخدام الإنترنت من جهة أخرى. فقد راقب ميلر وسلاتر انطلاقًا من طبيعة ترينيداد الطبوغرافية المحضة بوصفها جزيرة، اتّسام السكان بميلٍ للانفتاح، كما أنهم يشتركون على نحو كبير باهتمامهم بالاختراعات في مجال الاتصالات. وقد ربط الباحثان ذلك بمشاعر الانعزال التي عبّر عنها الناس بوصفهم يقطنون في جزيرة. كما بدا أن السكان يُعيدون صياغة

---

[75] Laplantine, François. "Anthropologie et Numérique."Journal des Anthropologues, 128-129 (2012): 301-323, DOI : https://doi.org/10.4000/jda.5955

[76] Selim, Monique. "La Production Numérique du Réel, Perspectives Anthropologiques."Variations, no. 16 (2012). URL: http://variations.revues.org/148; DOI: https://doi.org/10.4000/variations.148

[77] ترينيداد هي الجزيرة الأكبر والأكثر اكتظاظًا بالسكان في جمهورية ترينيداد وتوباغو. تقع على بعد 11 كم قبالة الساحل الشمالي الشرقي لفنزويلا، وتعتبر الجزيرة الجنوبية الأقصى في منطقة البحر الكاريبي. تبلغ مساحتها 4,768 كم²، مما يجعلها خامس أكبر جزيرة في الكاريبي.

المحتوى الرقمي بناءً على قيمهم الثقافية وتصوّراتهم، وهو ما يبدو أنه أثّر بالمقابل على ممارساتهم وعلاقاتهم وحتى على اقتصادهم المحلي على أرض الواقع. يصف الباحثان منهجيتهما بالقول: "منهجيتنا إثنوغرافية في أنها تستخدم الانغماس في حالة معينة ليكون ذلك أساسًا للتعميم من خلال استخدام التحليل المقارن (...) بالاستناد إلى انخراط متعدّد الجوانب وطويل الأمد مع الظروف الاجتماعية"[78].

لتبسيط ذلك، نجد أنهما لم يُطوّرا أي منهجية أخرى غير المنهجية "المحافظة نسبيًا"[79] التي تمثلت بجولاتهما في الجزيرة ومراقباتهما الميدانية والمقابلات والاستطلاعات الشاملة، فقد أمضيا الوقت في مقاهي الإنترنت أو البيوت أو أماكن العمل لمراقبة سلوكيات الناس عند استخدامهم للإنترنت، ثم وضعا قائمة شاملة لاستخدامات الإنترنت، من المحادثات العادية وصولاً إلى التجارة الإلكترونية. أما ما يجعل منهجيتهما "ويبنوغرافية"، بمعنى المراقبة التشاركيّة عبر الإنترنت، فقد تمثّل في كيفية قضاء الوقت في التفاعل مع المحادثات على الإنترنت ومراقبتها، كما في إجراء مراسلات مع بعض مصادر المعلومات عبر البريد الإلكتروني؛ فمن خلال انغماسهم الشخصيّ، جعلهما التفاعل يختبران موضوع دراستهم ذاته: وهو أنها قدمت لهما حسًّا أكثر دقة بالطريقة التي سيتصرّف فيها سكان الجزيرة على الإنترنت.

تساعد هذه الدراسة -من خلال دمجها ما بين التحرّي عبر الإنترنت وعلى أرض الواقع- على الاكتفاء بالنظر إلى الإنترنت على أنه أداة لنشر المعلومات

---

[78] Miller, Daniel, and Don Slater. The Internet. An Ethnographic Approach, Oxford: Berg, 2001.

[79] المرجع السابق

[80] المرجع السابق

ببساطة، بل على أنه "ممارسة محلية"[80]. في الواقع إن استخدام الإنترنت هو سلوك له أساس راسخ محليًا، كما تُعاد صياغته ويتكيّف بناءً على ذلك.

من هذا المنطلق فإن علماء الأنثروبولوجيا مدعوون إلى معاملة العالم الافتراضي "لا من باب أنه مجرد شاشة يُنتج منها الواقع، وإنما من حيث إنه الواقع نفسه"[81]. ولعل من الجوانب البارزة في دراسة الظواهر الاجتماعية -من دون تفريق بين عالم الإنترنت وخارجه- أن الالتفات إلى التأثير المتبادل بينهما يُمكن أن يتمخض عنه اقتراح قابل للتطبيق في الممارسات الصحفية؛ وذلك من خلال التعامل مع الظروف المحلية المتعلقة بالتعبير عبر الإنترنت وصلتها بفهم عوالم الإنترنت. لذلك فإن الطريقة الأولى والرئيسية التي يُمكن فيها للصحفيين الاستفادة من الأدوات الإثنوغرافية ستكون ذات طابع مفاهيمي أكثر منه منهجيّ. فالأمر مرتبط بإعادة طرح مسألة خصوصية الإنترنت حسب ما يدعوه علماء الأنثروبولوجيا بالمقاربة الداخلية (Emic)، والمقصود هنا الفهم والمعنى الذي يُعطيه الأفراد لأفعالهم وسلوكياتهم. ومن الناحية التجريبية، يتعلّق الأمر بعدم اقتصار المراقبة التشاركيّة على المنصات الافتراضية فحسب، ووضع أساليب للمراوحة بين المراقبة الافتراضية والواقعية بما يتتبّع أساليب الناس في الانتقال بين العالين.

3. التقنية الحركيّة للإنترنت

بخلاف مسألة العلاقة بين عالم الإنترنت وخارجه، فإن جانبًا آخر يقرر عملية

---

[81] Breteau Marion. Amours à Mascate (Sultanat d'Oman). Espaces, Rôles de Genre et Représentations Intimes chez les Jeunes. PhD diss., Aix-Marseille University, 2019.

التحقيق عبر الإنترنت وهو الجانب التقني، خاصة أن استعماله مرهون بإعدادات التطبيقات والمواقع الإلكترونية والأجهزة المستعملة. أوّلًا، يغلب على شبكة الإنترنت طابع التقلّب والتغيّر؛ إذ إن المحتوى الذي يوصل إليه، والإعدادات التي تنشره جميعها قابلة للتعديل أو الاستبدال أو الإزالة. وعلاوة على الجانب الديناميكي فإن الباحثين سرعان ما سيشعرون بثقل المحتوى والمعلومات على شبكة الإنترنت؛ مما سيعرقل مسعاهم نحو تحقيق الشمولية. لهذا، وبدلًا من تجميع كل المحتوى القابل للوصول، لا بد أن يتسمّ البحث عبر الإنترنت بالانتقائية. وهذا ما يتمّ عبر الأخذ بعين الحسبان لأساليب العرض والأرشفة في مواقع الإنترنت أو التطبيقات الخاضعة للبحث، خاصة أن الخوارزميّات هي ما يُحدّد وصول الجمهور إلى البيانات، ويُشكّل علاقتهم بها.

ويتلازم تطبيق الويبنوغرافيا مع الاهتمام بالخوارزميات وأنماط التشفير واللوائح والقيود المحلية. ولا حاجة إلى إتقان مهارات معالجة البيانات؛ فالأمر المهم هو إدراك أن ما نراقبه عبر الإنترنت مرهون إلى حدّ كبير بالمعايير التي تُوجد هذا المحتوى أساسًا. لذلك، ينبغي على الباحثين أخذ أساليب العرض بعين الحسبان (التصميم والشكل، وتطبيق الهاتف المحمول أو الموقع الإلكتروني وما إلى ذلك)، وخيارات التفاعل (التعليقات والإعجابات وما إلى ذلك)، وخيارات التسجيل مثل أساليب التعريف وتقديم النفس (إنشاء الحساب، والصورة الرمزية، والاسم المستعار وغير ذلك)، دون أن يغفلوا عن المعادلات الخوارزمية التي تنتج المحتوى المعروض. فهذه الجوانب جميعها مهمة لتأثيرها في تباين سلوكيات المستخدمين بين منصة وأخرى، وتاليًا إنتاج محتوى ومعانٍ مختلفة.

على سبيل المثال، عندما أجريت الأبحاث المتعلقة برسالة الدكتوراه حول سلوكيات المواعدة (علاقات الحب) في سلطنة عمان، استدعى انتباهي الميل الكبير إلى استخدام وسائل التواصل الاجتماعي اليومية، مثل فيسبوك، إنستغرام أو سناب شات، بغرض المغازلة. وقد كان للجوانب التقنية وإعدادات التطبيق الذي يختار الفرد استخدامه، دورها في تنوّع واختلاف طرق المغازلة.

على سبيل المثال، عزفت الكثير من الشابات عن استخدام تطبيق فيسبوك لأن أي مستخدم آخر قادر على التواصل معهنّ مباشرة (سواء عبر إرسال طلب صداقة أو رسالة)، إضافة إلى القدرة على رؤية صور حساباتهنّ، حتى لو لم يكن الشخص ضمن قائمة الأصدقاء. لذلك كنّ يُحبّذنَ استعمال تطبيق سناب شات، الذي لم يكن يتيح آنذاك حفظ بيانات المستخدمين، سواء على جهاز المُرسِل أو المُستَلِم، وكان يرسل حينها إشعارات للمُرسِل عندما يلتقط المُستَلِم صورة لمحتواه. وخلال المدة الزمنية لبحثي (بين عامي 2013 و2017)، كانت تطبيقات المواعدة، مثل تيندر (Tinder)، موجودة، غير أن أحدًا لم يخبرني باستعمالها. وعلاوة على شعور الإحراج من مشاركتي تلك المعلومات، فقد لاحظت أن استعمال وسائل التواصل الاجتماعي كان وسيلة أفضل لاحترام الأعراف والتقاليد المتمثلة بالحشمة في مجتمعهم. فهذا الأمر أتاح لهم الإتيان بتفاعلات طبيعية أو عشوائية أو أقل تركيزًا[82]، وأمدّهم ببعض مشاعر الغرام والشاعريّة التي حطمتها مواقع المواعدة، خاصة أن تلك المواقع تنطوي على صراحة زائدة حول نوايا مستخدميها في البحث عن شريك حياة.

---

[82] Breteau, Marion. "Pixel Outlines of Intimacy. Online Love among Youth in Muscat."In Reinventing Love? Gender, Intimacy and Romance in the Arab World, edited by Fortier Corinne, AymonKreil and Irene Maffi, 91-111. Berne: Peter Lang, 2018.

وفي طريق سعيي للتحقيق عن الاستخدامات المختلفة للإنترنت عند مصادر معلوماتي، بادرت إلى اتّباع بعض أساليب المراقبة، مثل المراجعة اليومية لحسابات معارفي على شبكة الإنترنت، وتسجيل السلوكيات والأنماط المتكرّرة (مثل الغياب المتكرر لصور النساء من حساباتهنّ الشخصية)، وأخذ لقطات الشاشة والأسماء الوهمية وغيرها من عناصر التعريف. ووضعت طريقة منهجية للمقارنة بشأن حسابات المستخدمين، وتنوّع المنصات، من دون إغفال الإطار الزمني. في الواقع كان الأمر المهم هو فهم ما إن كان المحتوى الملاحظ في أحد الأيام متكرّرًا في أيام أخرى، وتحديد إن كانت الأمور التي تصفّحتها عادية أم معيارية أم استثنائية نوعًا ما. ومن هذا المنطلق تحتم عليّ أن أتصفح الشبكات الاجتماعية يوميًا، وأن أصل إلى أكثر من مجموعة معزولة أو من مصادر المعلومات، وأن أراجع مصادر المحتوى الذي شاركوه؛ فعلى سبيل المثال، إذا نُشرت صورة لإحدى المناسبات الاجتماعية العائلية على حساب أحدهم، أوليتُ اهتمامًا لتفاعلات أقربائهم ومنشوراتهم، وبذلك أرى إن نشرت المناسبة نفسها بطريقة مغايرة عند هذا الشخص. واهتممت كذلك بالمنصة التي نُشر فيها المحتوى، ففي معظم الحالات، يمكن لإعدادات العرض وأسلوبه في التطبيق أو الموقع الإلكتروني أن تفسر ما عاينته من اختلاف العناصر وتنوعها.

ومع ذلك قد تعيق الطبيعة المتغيرة للمحتوى على شبكة الإنترنت التحقيق الإثنوغرافي، خاصة عند إجرائه ضمن أوساط أفراد مجهولي الهوية عبر الشبكة، فأي محتوى من هذا القبيل يكون غير معروف وسرّيًّا، وهذا ما صادفته أليكسيا مادوكس[83] عند التحقيق في مجتمع الإنترنت المُظلم لتجار

[83] Maddox, Alexia. "Disrupting The Ethnographic Imaginarium: Challenges of Immersion in The Silk Road Cryptomarket Community."Journal of Digital Research, 2(1): 2020, 20-38.

المخدرات. وكما تقول المؤلفة فإن مردّ الطبيعة الباطنية السرية لهذا العالم إلى أسلوب وجوده الحركيّ المتغير. فهذه المواقع تتفادى الرقابة الحكومية عبر التغيير المتكرر لعنوان بروتوكول الإنترنت (IP) لديها، وربما يختفي أثرها بين عشية وضحاها، والمستخدمون لهذه المواقع يتخفّون عبر استعمال أسماء مستعارة مختلفة في كلّ مرة يتواصلون فيها مع بعضهم البعض. وفي هذه الحالة، كان هذا الوجود العابر والمؤقت مدعاةً للدهشة، خاصة عندما أغلق مكتب التحقيقات الفيدرالي الموقع أثناء إجراء مادوكس أبحاثها[84]. وعوضًا عن الإذعان إلى فشلها في مراقبة الموقع، عزمت مادوكس على دراسة ما تُبرزه تلك الإعدادات، فضلًا عن حادثة إغلاق الموقع نفسه، محاولة بذلك استنباط معلومات منها في سياق سعيها للفهم. إن معاينة تفاعل المستخدمين مع بعضهم البعض، وإنشائهم ما يُشبه المجتمع بالاعتماد على تفاعلات وإعدادات مجهولة، أتاحت لمادوكس إدراك الطبيعة الهشة لشبكة الإنترنت. وكما لوحظ في الألعاب عبر الإنترنت[85]، فإنّ إخفاء الهوية في موقع يجمع الناس لغرض مشترك يوفر إطارًا زمنيًا محددًا لاستحداث علاقات اجتماعية بديلة. لكن هوية الأفراد الذين يستعملون هذه الحسابات لم يكن غاية الباحثة، بل تفسير هذه الممارسات كجزء من ثقافة قيد التشكّل وأنها خاصة بهذا الموقع تحديدًا. يُمكن فهم هذه الخصوصية من خلال النظر إلى جوانبها التقنية بما في ذلك البُعد القانوني، والسياق الأمريكي الذي نشأ فيه هذا الاقتصاد الخفيّ ونُظِّم، وأساليب تحديد هوية المستخدمين وإجراءات التشفير المتبعة.

---

[84] لمزيد من الاطلاع على منهجية مادوك، راجع "ماذا لو كنت تعيش فوق مخبز وتحب الكعك؟ تعاطي المخدرات ومساراتها قبل وخلال ظهور طريق الحرير"، جي إم باريت، إس لينتون، وإي مادوك، وإم آلين. (2016)، المجلة الدولية لسياسات المخدرات، العدد35، الصفحات 57-55. الرابط: https ://doi.org/10.1016/j. (drugpo.2016.04.006

[85] راجع مثلًا: "حياتي ككاهن عفريت الليل. حساب أنثروبولوجي في لعبة World of Warcraft". أ بوني ناردي، مطبوعات جامعة ميشغان، 2010.

4. الأخلاقيات والخصوصية

يوضح لنا المثال الأخير أن الإنترنت حينما يصبح موضوعًا للتحقيق الإثنوغرافي، فإنه يستلزم منّا الأخذ بعين الحسبان العواقب الأخلاقية لجهود كهذه. لو نظرنا عن كثب إلى هذه المسألة، يُمكننا ملاحظة أنها سهلة التأطير مقارنة بالبحث الميداني البعيد عن شبكة الإنترنت، إذ إنها مرهونة غالبًا بإعدادات الخصوصية والوصول للمحتوى التي تُحدّد مُسبقًا من قبل التطبيقات ومواقع الإنترنت. وفي جميع الأحوال، يحتاج الباحث في الميدان إلى تأطير ممارساته، فالأمر لا يتعلق به أو بالمجتمع المُراقَب وحسب، بل أيضًا بالمسائل القانونية المرتبطة بحقوق النشر وحماية البيانات.

وإن كانت القواعد الأخلاقية لدى الباحثين في مجال الأنثروبولوجيا تُشدّد على ضرورة موافقة المشاركين في البحث (كموضوع دراسة) وانتهاج الشفافية فيما يخص جهود الأبحاث، فإن هذه الجوانب على شبكة الإنترنت مرهونة غالبًا بطريقة بداية الباحثين في تفاعلاتهم في تلك المنصات، وإعدادات الخصوصية لديهم. وكما تبين الأمثلة التالية، فإن هذه المسائل تتوقف أساسًا على الموضوع الخاضع للدراسة، ووسيلة التواصل الخاضعة للبحث، ونوع العلاقة التي يسعى الباحث إلى توطيدها مع محاوريه.

وحسبما هو مذكور في ميثاق الأخلاقيّات، كأحد السياسات التي يتوجّب على العاملين في مجال الأنثروبولوجيا مراعاتها، هو ضمان سرية معلوماتهم الميدانية وأمنها وهويات المشاركين[86]. ومن المفروض أن الأبحاث المنشورة

[86] انظر القواعد الأخلاقية للجمعية الأنثروبولوجية الأمريكية: https://www.americananthro.org/LearnAndTeach/Content.aspx?ItemNumber=22869&navItemNumber=652

هي تلك الملتزمة بهذه المتطلبات، ولكن في سياق الأبحاث المتركّزة في شبكة الإنترنت، فإن البيانات تُعدّ ملكيّة عامة، وهو ما يتنافى مع المواثيق الأخلاقية. منصة تيك توك، مثلًا، لا تُطالب المشاهدين بإنشاء حساب لمشاهدة مقاطع الفيديو، ومن هذا المنطلق يفترض أن تكون جميع محتويات المنصة ملكية عامة. وكما تنصّ قواعد شروط الخدمة في هذا التطبيق، فإن المستخدمين هم المسؤولون عن محتواهم، ومن مسؤوليتهم تقييد الوصول إليهم وفقًا لإعدادات التطبيق[87]. كما يوجد مستوى ثانٍ من العقبات التي تتعارض مع القواعد الأخلاقية في مجال الإثنوغرافيا، وهو حينما تتداخل مواضيع بعض مقاطع الفيديو مع قضايا قانونية أخرى.

استخدام تطبيق تيك توك في بلدان الخليج قد ينتج عنه إنشاء مقاطع فيديو هادفة إلى توظيف الأجنبيات في العمالة المنزلية في بلدان المنطقة. وفي هذا الإطار، تتولى المنظمات غير الحكومية والجمعيات الإنسانية المحلية تناول المسألة؛ لأنهم يرون في بعض هذه المقاطع شكلًا جديدًا من أشكال الاتجار بالبشر، إذ يفترضون بأن الأفراد الفاعلين المسؤولين عن التوظيف في وسائل التواصل الاجتماعي يتكتمون على ممارسات توظيف غير قانونية.

وهنا السؤال، كيف يتأتّى للباحث أن يعالج هذه المسألة؟ فلو كان البحث قائمًا على فرضية عدم قانونية تلك الممارسات، فإن التواصل مع منشئي الإعلانات غير الرسمية قد يُعرّض الباحث والمستخدمين للأخطار، فضلًا عن التطبيق بحدّ ذاته. كما أنه يُثير تساؤلات بشأن عواقب توثيق هذه الممارسات سواء في منشورات صحفية أو علمية، خاصة عندما تحتوي على

---

[87] انظر شروط الاستخدام في منصة تيك توك: https://www.tiktok.com/legal/terms-of-service-eea?lang=fr

صور للقطات الشاشة (إذ تظل ملكيتها عامة) أو مقتطفات من المقابلة. لذلك ينبغي أن يتواءم خيار التحقيق أو النشر مع القواعد الأخلاقية الخاصة بكل مجال، بما يضمن أن يظلّ الأفراد مجهولي الهوية بكل السبل الممكنة.

وما يهمّ كذلك في التحقيق في مجال الأنثروبولوجيا، هو مشاركة الباحثين وشفافيتهم مع مصادر معلوماتهم، والقواعد الأخلاقية الأنثروبولوجية جازمة في ما يخصّ تلقي الموافقة من الأفراد الذين نقابلهم. ومن زاوية عمليّة، نلاحظ أن نظرة المجتمع قيد الدراسة نحو الباحث وثقتهم به شرط أساسي لمشاركتهم في البحث الميداني. وفي رحلة السعي لبلوغ هذا الهدف، يعكف علماء الاجتماع، على اتباع طريقة معروفة بـ "حساب الباحث"، وتقوم على إنشاء حساب للباحث في منصات التواصل الاجتماعي الخاضعة للبحث، ويكون مخصّصًا للتفاعلات المرتبطة بنطاق البحث ومعزولًا بشكل تامّ عن "حياة الباحث الشخصية". وقد تبنى هذا الخيار الباحثون الذين درسوا ثورات الربيع العربي، حيث تبيّن أن مشاهداتهم موجّهة لمحتوى محفوف بالمخاطر. على سبيل المثال، في مصر استخدم المتظاهرون الإنترنت، وخاصة فيسبوك، للتواصل والتنظيم فيما بينهم، خاصة بعد أن اتخذت الحكومة تدابير صارمة لاحتواء الانتفاضة الاجتماعية.

وهذا ما فعلته عالمة الاجتماع سيليا لامبلان، التي كانت قد اختارت آنذاك تقنية "الحساب المهني"[88] عند دراستها للجاليات المصرية في فرنسا؛ فركزت في أبحاثها الميدانية على المهاجرين، أي أولئك الذين شاركوا في الثورة عن

[88] Lamblin, Célia. Vivre la Révolution de 2011 à Distance. Sociologie des Migrations Égyptiennes en France. PhD diss., Aix-Marseille University, 2018.

بُعد، وكانت وسائل مشاركتهم رقمية بحتة[89]. واستطاعت لامبلان عبر حسابها أن تتابع منتديات الناشطين في فيسبوك، وأن تحصل على صور ومنشورات عن المظاهرات، وأن تتبادل النقاش مع الناشطين. قد تُثير هذه الطريقة الشك عند مصادر معلومات الباحث، حيث يُفضي استعمال حساب مهني "فارغ" إلى انعدام التكافؤ بينه وبين المشاركين. ولكن ما حال دون الشكّ في لامبلان هي طبيعة الشبكة التي أنشأتها على الإنترنت، إذ تضمّنت أفرادًا يعرفون بعضهم البعض، حتى وإن كانوا من خلفيات أو توجهات سياسية مختلفة. اذًا، ساعدها تنوع شبكتها، وتاليًا عدم تمثيلها لحزب سياسي بعينه، كما امتناعها عن الانخراط في أي نقاشات علنية أو جدلية. برهنت هذه العناصر مجتمعةً على انضباط لامبلان الأخلاقي، وقدم مسعاها بصورة علمية بحتة[90].

الخلاصة

تستلزم الأبحاث الميدانية التجريبية امتلاك قدرات للتفاعل مع الناس، وإبداء اهتمام صادق بكلامهم وحيواتهم، وتخصيص وقت كافٍ لطمأنتهم وتبادل المعلومات معهم، واحترام نزاهتهم. هذه المهارات معارف عملية اعتيادية، وشبكة الإنترنت نفسها أصبحت جزءًا من حياتنا اليومية، ما يجعلها أيضًا من المعارف الاعتيادية. من هذا المنطلق، فهم هذين العالمين في علاقتهما ببعضهما البعض يُتيح لنا إعادة النظر في الأساليب الكلاسيكية

---

[89] سيليا لامبلان وماتيو دوموري، "استعمال الإنترنت في التعبئة السياسية"، جامعة UPOP Marseille، منشور على الإنترنت بتاريخ الأول من مارس/آذار عام 2021. انظر: https://www.youtube.com/watch?v=ZmnFiZizQCk&ab_channel=UPOPMarseille

[90] المرجع السابق، ص8.

للمشاهدة في علم الإثنوغرافيا بوصفها ملائمة للتطبيق في شبكة الإنترنت. وكما ذكرنا سابقًا فإن تداخل المشاهدة على شبكة الإنترنت وخارجها هو الطريقة الأكفأ، ومن المرجح أن تتزايد الأبحاث الميدانية في شبكة الإنترنت مستقبلًا، وعلى الباحثين الميدانيين الاستعداد للأمر؛ لذلك فإن الأداة التي يقدر الباحثون في مجال الأنثروبولوجيا مشاركتها حاليًا، هي التعامل بنسبية مع ثنائية الاتصال بالإنترنت/عدم الاتصال بالإنترنت، في تفكيرهم بأساليب جمع البيانات.

ولو عدنا إلى موضوع عدم قانونية التعامل مع المحتوى على شبكة الإنترنت نظرًا لطبيعته "غير الحقيقية"، لأمكن للشخص أن يرى بعض المزايا للأبحاث الميدانية داخل شبكة الإنترنت. ففي الحالات المحفوفة بالمخاطر، مثل الثورة المصرية، اتضح أن بقاء الباحثين الميدانيين في المنزل هو الخيار الأكثر أمانًا. كما أتاح بلوغ أنماط تعبير أغنى، أو بالأحرى أشكالًا أخرى من أنماط التعبير والبيانات مقارنة بالدراسات الإثنوغرافية الكلاسيكية. ولأن الإنترنت أداة غير دقيقة أو أنه ليس وسيطًا لنقل الممارسات التي تحدث خارجه، فإن إبراز مزايا الأبحاث الميدانية عبر الإنترنت يجب أن يترافق مع تعزيز الوعي لدى الاختصاصيين بأن البيانات المجموعة عبر الإنترنت هي ظاهرة لها أساس راسخ محليًا. وينبغي لهم أن يتساءلوا عن صورة الإنترنت في أعين الناس محور الأحداث التي يغطونها، وأن يركنوا إلى أن البحث الميداني، داخل الإنترنت وخارجه، هو دائمًا مسألة اختيار وإتاحة وصول، فهو بذلك ليس شموليًا وإنما مرتهن بالاختيارات الأخلاقية.

مناقشة المحظور؛ إثنوغرافيا الحب في جزيرة "قشم" الإيرانية

إيلاهي حبيبي

مخرجــة أفلام وثائقية من إيران وباحثة في مجال الأنثروبولوجيا البصرية والدراسات الجندرية والتاريخ. تهتــم إيلاهــي بدراســة التقاطعات بيــن الثقافة البصريــة والتاريخ الاجتماعــي، مع التركيز على دور صور الثــورة والحياة اليومية والنزاعات في تشــكّل الذاكرة الجماعية والهويات الوطنية.

طوال شهرين من عام 2018، عشتُ مع عائلة "بدوي" والتقطت مقاطع مصوّرة لها. هذه العائلة المكوّنة من رجلٍ وزوجتيه، تعيش في قرية "زينبي" في جزيرة قشم الإيرانية[91]، وشكّلت محور الفيلم الذي عملتُ عليه في الجزيرة. تبلورت الفكرة بعد ملاحظة اهتمام نساء القرية الخاص بفكرة الحب، وبأن تجاربهنّ وتفسيراتهنّ له تختلف عن تجربتي وعمّا عرفته؛ أنا المرأة الإيرانية التي نشأت في العاصمة طهران. خلال إقامتي، وبينما أتحدّث إلى مجموعة من النساء، رحنَ يسألنني عن علاقتي الزوجية. لم تُقنعهنّ إجابتي على أحد أسئلتهنّ: كم استمرت فترة الحب بينك وزوجك؟ أجبتُ بدايةً بأنني ما زلتُ أحبّه، وبأننا نعرف بعضنا منذ ما يزيد عن تسع سنوات. كرّرنَ السؤال مع تعديل بسيط في الصياغة: ولكن كم من الوقت أمضيتِ وأنتِ تشعرين بالحب تجاهه؟ أجريتُ حسابات جديدة وأجبتُ: تجمعنا علاقة حب منذ سبع سنوات، حاذفةً بهذا سنتين من عُمر زواجنا.

لم يكنّ قادرات على فهم طبيعة علاقة الحب التي تجمعني بزوجي، وهذا ربما بسبب مفهومهنّ الخاص للحبّ. هذا السؤال المربك رافقني طوال فترة العمل على الفيلم، وساعدني على الاقتراب من تفسيرات أخرى للحب والزواج. كما جعلتني التجربة أفكر بسؤالين أساسيين: هل الحب الرومانسي ظاهرة عالمية؟ وهل يتزوج الناس للسبب ذاته مهما اختلفت ثقافاتهم وتنوعت؟

---

[91] تقع هذه الجزيرة في مدخل الخليج العربي في مضيق هرمز وتتبع لمحافظة هرمزغان الإيرانية، وتعدّ أكبر جزيرة في الخليج العربي بمساحة تبلغ 1،491 كم مربع.

الواقع الاجتماعي على الشاشة

بدأت فكرة صنع فيلم عن الزواج والحب و"الخطيفة"[92] على جزيرة قشم مطلع العام 2015، بينما كنت أعمل باحثة لصالح منظمة الموروث الثقافي والحرف اليدوية والسياحة في إيران (OCHTI)، وقد كان البحث منصبًّا على موضوع نظام إدارة المياه في الجزيرة. ولهذا السبب عشتُ بين سكان الجزيرة لمدة ستة أسابيع، رفقة خمسة باحثين آخرين. أتاح لي المشروع فرصة التواصل مع عدد كبير من السكان المحليين والباحثين والمؤرخين، وكذلك المساعدين والمسؤولين في مجلس القرية. تحدث أغلب من قابلتهم بشغف وصراحة عن تجاربهم، وقدّموا لتقرير المنظمة بيانات مهمة وقيّمة. لكن المشروع كان مبنيًّا على أساس إجراء زيارات عدّة خلال اليوم الواحد، وكانت الزيارات موزّعة على مجموعة من القرى في الجزيرة، ما حدّ من فرصة خلق روابط أو بناء ثقة مع السكان. كما كان من المحبّذ عدم الخوض عميقًا في الواقع الاجتماعي لأسباب سياسية واضحة، على الرغم من عملنا لصالح مركز متخصّص بعلوم الأنثروبولوجيا.

ولأنني أحمل شهادة عليا في مجال دراسات المرأة والجندر، كما أنني صحفية كتبت لبضع سنوات حول قضايا المرأة، كنت على معرفة بطبيعة القيود السياسية والتمييز ضد المسلمين السنة في قشم. وعلى مدار عقود، ظلّ الباحثون في مجال علم الاجتماع لا يُشجعون على دراسة قضايا تتعلق بالأقليّات العرقية، وخاصة المجتمعات السنية في إيران، بل ويُمنَعون من ذلك في معظم الحالات. وفي هذا السياق غدت قضايا النساء في المجتمعات السنية ذات حساسية من نوع خاص.

---

[92] الهرب للزواج من شخص من دون الحصول على موافقة أهل العروس.

في الوقت نفسه لم تكن وسائل الإعلام تقترب من نقل الواقع الاجتماعي بكل ما يحمله من تعقيدات.

إذ عملت وسائل الإعلام المحلية على تقديم صورة نمطية لحياة المسلمين في إيران. بينما صوّر الإعلام الغربي إيران على أنها "دولة من المتشددين". وما بين الإثنين، حاولت السلطات الإيرانية، عبر أدوات رقابتها الفاعلة، منع صنّاع الأفلام الإيرانيين من إنتاج تصورات للأقليات على نحو يُنصف واقع معيشتهم. لاحظت الباحثة في علوم الأنثروبولوجيا ومخرجة الأفلام الوثائقية زيبا مير حسيني، تناقضًا صارخًا بين التصورات التي يُنتجها الإعلام الغربي وتلك التي تظهر في أعمال صناع الأفلام الإيرانيين. تقول مير حسيني في تعليقها على تعاونها مع كيم لونغينوتو لصناعة الفيلم الوثائقي "الطلاق على الطريقة الإيرانية" (1998):

كانت كيم لونغينوتو مهتمة بفحص التناقض بين التصورات التي تنتجها الوثائقيات المتلفزة المعنية بالأحداث الجارية من جهة، وتلك التي تظهر في أعمال لصناع أفلام خيالية إيرانيين مثل كيارستمي[93]. الأولى تظهر إيران على أنها دولة من المتشددين، في حين أن الثانية توصل حسًّا أكثر لطفًا وشاعرية عن الثقافة والناس، وكما تقول، فإنه "لن يخطر ببالك أن الوثائقيات والأفلام الخيالية كلها تتناول المكان ذاته."[94]

---

[93] عباس كيارستمي (1940–2016) مخرج إيراني بارز، عُرف بأسلوبه السينمائي التأملي والبسيط، وترك أثرًا عالميًّا في السينما الفنية، ومن أبرز أعماله طعم الكرز الذي فاز بالسعفة الذهبية في مهرجان كان عام 1997.

[94] Mir-Hosseini, Ziba. 1999. Islam and Gender: The Religious Debate in Contemporary Iran. Princeton University Press.

رصدتُ هذا التناقض بعد زيارتي لجزيرة قشم؛ كان الفرق شاسعًا بين التصورات الإعلامية وتلك السينمائية عن واقع الحياة الاجتماعية للناس. طويلاً، تحدّت أعمال صناع الأفلام الإيرانيين قيود الرقابة بطرق مختلفة، خاصة وأن الكثير من صناع الأفلام الوثائقية اجتهدوا لإيصال إحساس أكثر واقعية وأصالةً في نقلهم للثقافات المحلية، إلا أنهم مع ذلك ظلوا في إطار المنظور الإنساني الذي أنتجه وسوّق له الإعلام الغربي.

تُبيّن ليلى أبو لغد في كتابها "هل تحتاج المرأة المسلمة إلى الإنقاذ؟"[95] كيف أن شكلا مَحدّدًا من تمثيل المجتمعات المسلمة في الإعلام الغربي أنشأ بالتدريج صورة عدائية للمسلمين، وكيف قدمت هذه التصورات تسويغاً لغزو الولايات المتحدة لأفغانستان عام 2001، تحت عنوان "إنقاذ المرأة المسلمة من العنف". هذا التطويع للنظرة الغربية يبدو أكثر وضوحًا في أفلام وثائقية تناولت قضايا المرأة في إيران.

ومن أجل تجنب الوقوع في معالجة غربية، سعيتُ في هذا المشروع إلى دراسة معنى الحب بين القرويين المقيمين في قشم، وذلك من خلال المنهجية الإثنوغرافية التعاونية الانعكاسية التي طورها الباحث في مجال الأنثروبولوجيا والسينمائي الفرنسي جان روش في فكرته حول الأنثروبولوجيا التشاركية[96].

---

[95] Abu-Lughod, Lila. Do Muslim women need saving?. Vol. 15, no. 5. Sage UK: London, England: SAGE Publications, 2015.

[96] Rouch, John. 2003. Ciné-Ethnography. Minneapolis: University of Minnesota Press.

الإثنوغرافيا في الوثائقيات

توجّب عليّ مواجهة بعض المعوّقات خلال دراستي لمفهوم الحب بين السكان المحليين؛ من اللهجة المحلية المحكية، إلى القدرة على بناء روابط ثقة عميقة مع من أقابلهم، والتغلّب على القلق من احتمال إساءة تمثيل المشاركين في الفيلم. ولكن، واستنادًا إلى منهجيّتي المُتبّعة؛ أي الأنثروبولوجيا التشاركيّة، تمكّنت تباعًا من التغلّب على تلك المعوّقات.

إنّ تموضع الباحث في الميدان جزءٌ أساسيّ من الدراسات النسوية ومن الإثنوغرافيا، وهو أمر نوقش على نطاق واسع في العقود الأخيرة[97]. عندما بدأت عملي في جزيرة قشم كانت مشاركة النساء سخيّة؛ لم يبخلن عليّ بوقتهنّ، ولم أواجه مشاكل في تكوين روابط معهنّ؛ وذلك لأنهنّ تعرفن إليّ من زيارة سابقة إلى القرية ونشرت العديد من التقارير عنهنّ. وكان قد قدمني إليهنّ موظف حكومي يثقن به، بالإضافة إلى كوني باحثة إيرانية قادمة من جامعة في بريطانيا، تفهم لهجتهنّ وحركات الجسد وتعابير الوجه؛ كل هذه العوامل سهلت مسار عملي البحثي وأتاحت مشاركة

---

[97] Deutsch, Nancy L. 2004. Positionality and the pen: Reflections on the Process of Becoming a Feminist Researcher and Writer. Qualitative Inquiry, 10(6), 885– 902).

Reed-Danahay, Deborah E. (Ed.). 1997. Auto/Ethnography: Rewriting the Self and the Social. London: Routledge.

Abu-Lughod, Lila. 1988. Veiled Sentiments: Honor and Poetry in a Bedouin Society. Berkeley: University of California Press

Geertz, Clifford. 1988. Works and lives: The Anthropologist as Author. Stanford: Stanford University Press.

كثيرين من النساء لقصصهم معي. كما كان لصراحتي المُطلقة مع مصادر المعلومات -أو من قابلتهم- دور في تعزيز الثقة وتشجيعهم على التعاون. كنتُ أعرف معظمهم من زياراتي السابقة إلى الجزيرة، ولكنها تبقى معرفة في سياق مهني مختلف؛ لهذا، ومنذ اللحظة الأولى، حرصتُ على توضيح موقعي المهني الجديد: طالبة دراسات عليا في قسم دراسات المرأة في جامعة مانشستر. وهذا لم يكن تفصيلاً، كنتُ على يقين من ضرورة التعريف عن الذات قبل الشروع في العمل، وكذلك الحديث عن المشروع البحثي وما أنوي فعله كباحثة في الميدان.

كما أنني اعتمدتُ نموذج موافقة خطيّ قبل إجراء أي لقاء، ما أدى دورًا في تعزيز الثقة. تحدّثتُ مع المشارِكات عن نموذج الأخلاقيات الخاص بجامعة "مانشستر"، وقدّمتُ شرحًا واضحًا عن الهدف من هذه الموافقة الخطية. عائشة، وهي إحدى النساء المشاركات في الفيلم، عملت باستمرار على تذكير باقي المشتركات بالنموذج وما ينصّ عليه من شروط حماية لهنّ؛ لا تصوير ولا تسجيل للكلام من دون التوقيع. خلق الأمر جوًّا من الراحة في النقاش، وزاد من إحساسي بالمسؤولية.

إضافة إلى كل ما سبق، كان لفعل كوني امرأة دور في تسهيل المهمة. باحثة متزوجة تمكث في القرية برفقة زوجها، ما جعل تبادل القصص أسهل، وجعل الألفة أكبر. عندما كنّ يتحدّثنَ لي عن زواجهنّ كنت أتحدث لهنّ أيضًا عن قصة حبي وزواجي. شاركنَ معي طوعًا تفاصيل شخصية وحميمية، وبقيتُ لفترة مندهشة من ائتمانهنّ لي على تجاربهنّ في الحب والعلاقات الحميمية، وهو ما سجلته في دفتر ملاحظاتي في الميدان:

لفتتني تلك الطريقة التي يتحدث فيها النساء والرجال معي بانفتاح عن علاقاتهم الحميمية والرومانسية وعن تجارب الحب. أشعر كيف أثار موضوع الحب حماسهن، وأنه غدا السبب الرئيسي لدعوتي إلى جلساتهنّ. كما أن المفردات التي يستخدمنها للحديث عن العلاقة أذهلتني، إذ إنهن يستخدمن الفعل "يفعل" (do) عندما يتحدثن عن شؤونهنّ مع أزواجهنّ، وقد استخدموه مرارًا لوصف ذلك بالإشارة إلى الرجال والنساء، ما يدلّ على فاعليّة لهنّ في العلاقة تختلف عن علاقة المفعولية التي تظهر حتى في الاختيارات اللغوية في اللغة الفارسية الرسمية، إذ عادة ما يكون الرجل هو فقط الفاعل.

هذا الشعور بالراحة والسلاسة وتدفّق الكلام، كان أكبر مع نساء القرية اللواتي رحنَ يُعرّفنني على بعضهنّ البعض ويدعونني لحضور حفلات الزفاف؛ بينما كان الرجال أكثر تحفّظًا في تعاملهم معي.

لم يكن للفروقات الثقافية والاجتماعية بيني وبين نساء الجزيرة دور سلبيّ، بل شكّلت فرصةً سمحت لي بالسؤال عن كلّ تفصيل في حياتهنّ. اعتدنَ تدريجيًّا على أسئلتي، وصارت إجاباتهنّ أكثر وضوحًا وأخذت النقاشات طابعًا حواريًّا امتلأ بالمقارنات. غالبًا ما كانت الأسئلة ترتدّ عليّ، بحيث صارت النساء أكثر اهتمامًا بحياتي وتفاصيلها، لا سيما يومياتي في بريطانيا.

ولكن هذا القرب الشديد طرح إشكاليّة مهمة، تحديدًا عندما بدأت تظن بعض النساء بأني أشاركهنّ نفس المفاهيم وخاصة عن الحب. فكيف يُمكنني النأي بالنفس وأخذ مسافة في هذه الحالة؟ توجّب عليّ الالتفات أكثر إلى كل كلمة صادرة منهنّ، لذا بدأت باستخدام تقنية أسئلة المتابعة،

وعدم الاكتفاء بلائحة الأسئلة مسبقة التحضير. في إحدى المقابلات، قالت لي سيدة "كما تعرفين الحبّ يدمر حياة المرء"، قاطعت حديثها وطرحت عليها مجموعة من الأسئلة: ما هي آثار الحب على حياة المرء؟ كيف يُدمر الحب حياة أحدهم؟ (...) بهذا أكون قد تحقّقت من كل جزء من إجابتها، وقطعت الطريق على سوء الفهم الذي يتأتّى من افتراض مصادري معرفتي بكل تفاصيل ثقافتهم وحياتهم.

فكرة صنع فيلم عن الحياة الخاصة لأشخاص من دون إساءة تمثيلهم أو التجاوز أمرٌ مقلق. ازدادت مخاوفي خلال عملية التصوير والتحرير، إذ كان عليّ اختيار ما سيعرض وما سيُحذف بما يحترم خصوصيتهم. ومن مبدأ اعتمادي على "الأنثروبولوجيا التشاركية" (تُعرف أيضًا باسم "الأنثروبولوجيا الانعكاسية")، قررت اعتماد الجلسات التعقيبية للتأكّد من دقة تمثيلي لمفاهيم المشاركين عن الحب. لهذا اخترت العيش في منزلٍ منفصل، قريب من منزل المشاركات الرئيسيات في الفيلم. وهذا ما أتاح لي فرصة لقائهنّ بشكل يوميّ في بيوتهنّ أو في أماكن العمل. عندما أنهي التصوير أعود إلى منزلي لمشاهدة جميع اللقطات وأركّز في حديثهنّ وكيفيّة صياغتهنّ للأفكار؛ وذلك للتأكّد من وضوحها وتقديمها بالمعنى الدقيق. ومن أجل التغلب على قلقي، قمتُ في بعض الأحيان بعرض لقطات على الأشخاص المعنيين والطلب منهم التعقيب عليها. ساعدتني التعليقات على معرفة الأمور التي يجب تغييرها أو إعادة تصويرها من جديد. شكّل هذا التعاون مع مصادري مرحلةً أساسية في العمل البحثي، وذلك لضمان النقل الدقيق من دون خلق التباسات، وكان المنهجية الأنثروبولوجية الأكثر أخلاقية والأكثر أمانة وعلميةً في السياق الذي كنت أعمل فيه.

في سياق آخر، حاولتُ أن أكون أكثر وعيًا بموقعي كمراقبة (مشاهدة) وصانعة أفلام. لهذا قسمتُ وجودي إلى جزئين: أنا والكاميرا. يقول روش: "إنه نوع غريب من تصميم الرقصات التي إن عثر على الإلهام خلالها فإنها لن تظهر المصور ومهندس الصوت فحسب، بل ستجعلهما مشاركين في الحدث".[98]

بناءً عليه، اتّخذت قراري، خاصة خلال عملية التحرير/المونتاج، بإبقاء صوتي حيثما ظهر خلال التصوير. وهكذا مثّلت أسئلتي وأجوبتي على الأسئلة المطروحة ممّن قابلتهم جزءًا أساسيًّا من الفيلم، أي كان حضوري في الميدان انعكاسيًّا.

في سيرة الحب

عائلة بدوي التي قمتُ بتصويرها على فترة شهرين، تتألّف من صالح، وزوجتيه: عائشة ومريم. من أجل الحصول على تصور مرئي لهذه العائلة، والعلاقة التي تجمع بينهم، طبّقت مبادئ الإثنوغرافيا مع وجود الكاميرا ومن دونها. يعد الباحث في مجال الأنثروبولوجيا البصرية وصانع الأفلام الوثائقية، دافيد ماكدوغال، أن مراقبة الناس في حياتهم اليومية، هو ما يُمكّن المراقب من تحويل الغرباء الذين لا يُمكن تمييزهم (أو الذين يشبهون غيرهم من البشر) إلى أفراد معروفين[99].

---

[98] Rouch, John. 2003. Ciné-Ethnography. Minneapolis: University of Minnesota Press.

[99] MacDougall, David. 1998. Transcultural Cinema. New Jersey: Princeton University Press.

كنت على دراية أن عليّ تعلّم المزيد عن إيقاع حياتهم، وعن علاقاتهم مع أطفالهم وجيرانهم والأماكن التي يقضون فيها أوقاتهم للنجاح في التقاط الحياة اليومية.

تستيقظ عائشة في الرابعة صباحًا. اعتادت على الخروج باكرًا من البيت لإطعام الحيوانات، وحلبها، وتنظيف الحظيرة ثم مرافقتها بها إلى الصحراء. كانت تعود إلى المنزل في السابعة صباحًا لتناول وجبة الفطور. في هذا الوقت، تكون مريم قد أعدّت وجبة الفطور للعائلة، وبدأت بصنع اللبن. أمّا صالح فيُغادر المنزل عند الثامنة صباحًا؛ يرعى الماعز وهو على دراجته. تظل العائلة مشغولة حتى الخامسة مساءً، وهنا يأخذون استراحة مسائية طويلة في منزل ابنتهم فاطمة، الابنة البكر. كانت في الثامنة عشرة من العمر، عندما أنجبت ابنها الأول الذي صار سببًا لتجمّع العائلة والجيران كل مساء لشرب القهوة وتبادل الأحاديث. من عادات القرية، أن تزور النساء منزل الأمهات حديثات الولادة لمصاحبتهن والاعتناء بالوليد الجديد وأمه.

سهّل هذا الحدث، أي ولادة حفيد عائشة، إجراء دراستي الإثنوغرافية. دُعيت إلى المنزل كل مساء، ما وفّر لي لقاء العديد من النساء والتحدّث بسهولة إليهنّ. في قرية زينبي، لا شيء أكثر تسليةً من التجمّع والكلام. تتوزع تجمعات الرجال وأحاديثهم بين الشاطئ والمقهى الوحيد في القرية، أمّا الصبيان فلهم ملعب كرة القدم الذي تأمّن عبر تمويل حكومي، والنساء في منازل بعضهنّ البعض لشرب القهوة وتناول بذور عبّاد الشمس وأكل الذرة.

في تلك الجلسات، شاركتني النساء قصصهنّ عن الحب من دون قيود. كنّ من وقت إلى آخر يضعنَ أحاديثنا تحت عنوان "حديث في الحب". كان حديث الحب بالنسبة لهنّ يعني الرومانسية، والخطيفة، والزواج، والطلاق. دُعيت إلى منزل فاطمة من أجل الحديث عن علاقات الحب في الزواج أو قبله. أدهشني الانشغال الشديد بالحب وأشكاله ومفاهيمه، في وقت ادّعت كثيرات عدم خوضهنّ تجاربه. ما دار بيني وبينهنّ خلال فترة إعداد الفيلم، وضّح لي ضرورة وضع الحب في سياق واضح ومحدد خاص بالقرية. على سبيل المثال، سردنَ لي قصة زينب. امرأة وقعت في حب شقيق زوجها، عندما كان الأخير مسافرًا إلى البحرين للعمل. علم كل من في القرية عن العلاقة السرية التي جمعت زينب وشقيق زوجها، باستثناء الزوج. استمرا في علاقتهما إلى أن اكتشف الزوج الأمر، فطلّق زينب التي تزوّجت بعدها بعشيقها، أي شقيق زوجها السابق. قصة زينب مليئة بالمعاناة، خاصة وأن عشيقها الذي أصبح زوجها الثاني مارس عليها عنفًا شديدًا بشكل يوميّ.

في هذه القصة، وحسب ما ورد على لسان نساء القرية، تتمثّل دلالة الحب في معاناة زينب الطويلة. لم تتخلّ عن محبوبها وبقيت معه حتى وفاتها بعمر التسعين. شكّلت القصة وسيلة للنساء من حولي للتعبير عن نظرتهنّ إلى الحب، فهو بالنسبة لهنّ رغبة عارمة تجتاح المرء ولا يملك السيطرة عليها. عندما تقع في الحب لن تستطيع النوم من دون رؤية معشوقك.

مع سماعي لقصص الحب المختلفة، لاحظتُ أن الحب يتمحور غالبًا حول النساء المتزوجات. ربما يكمن السبب في زواجهنّ في سن مبكرة (تزوجت معظم النساء في سنّ الثانية عشرة)، أي مراحل قبل أن يفهمنَ شيئًا عن

العلاقات الزوجية. وعندما يصلنَ إلى العشرينات، تتجّه لاختيار شريك الحياة الذي يرغبنَ به، والانفصال عن عائلتها وأطفالها وحياتها السابقة. وهذا ما يُفسّر عدم فهم نساء القرية لعلاقة الحب التي تجمعني بزوجي، وتعبيري عن استمرار الحب بيننا. بالنسبة لهنّ، الزواج الأول، الذي غالبًا ما يكون زواجًا في سن مبكرة، ليس الحب جزءًا فيه.

تستحقّ قضية الرغبة الفردية إلى التعمّق بحثيًّا؛ النساء مثل مريم، أي اللواتي سرنَ وراء رغباتهنّ وتمسّكنَ بحبهنّ، لم يُردن بالضرورة الانفصال عن العائلة والأقارب، ولا مقاومة السلطة الأبوية. هنّ يعرفنَ أن المجتمع سيقبل علاقاتهنّ بمجرّد إبرام عقد زواج. وفي حالات زواج "الخطيفة" التي عاينتها في الميدان، اعتمدت هذه الطريقة من قبل الأصغر سنًّا، أي الشباب، وكانت بالنسبة لهم وسيلة لتحدّي سلطة الآباء فيما يتعلّق بالزواج. وهذا ما يتفسّر بعودتهم إلى القرية بعد إتمام الزواج. عودة إلى القرية للعيش مع من عارضوا الزواج في الأصل، ولكنهم اضطروا للقبول به بمجرّد إبرام العقد.

سكان قرية زينبي يُعطون مساحة وقيمة كبيرة للحب. يأخذ الحب هناك أشكالاً وأنماطًا وتعريفات جديدة، وقد يكون سببًا لتغييرات جذرية في حياتهم. وعلى الرغم من غيابه في معظم حالات الزواج الأولى (الزيجات التقليدية)، إلاّ أن الحب كمفهوم حاضر ومقدّر، خاصة بين النساء المسنّات والمتزوجات. لا يتصل الحب بمفهوم الحداثة، وهو ليس أحد خصائص الحياة المعاصرة، وهذا ما يتبيّن في القرية. الحب هنا لا يرتبط بالفردانية، وأشخاص من قبيل مريم وصالح، ممّن يتبعون رغباتهم وينفصلون للارتباط بمن يحبون، لا تبدو لديهم النية بالانفصال عن عائلاتهم؛ الحب

له مكانة كبيرة ضمن شبكة الأقرباء سواء عند الرجال أو النساء، حتى أن المرأة التي مرت بتجربة حب تُمنح نوعًا من القدرات العلاجية التي تُمكّنها من مداواة آلام الآخرين، وهذا يوضّح مكانة الحب في المجتمع.

بناء الفكرة عبر اللقطات

كانت التجربة التي حاولت نقلها من خلال الفيلم، معقدة تتشابك فيها مفاهيم مثل الحب والعنف والتصالح. تطلّب مني الأمر اعتماد بنية واضحة للفيلم، ولجأت إلى بعض التقنيات المرئية لتركيز الاهتمام على نتائج البحث الميداني.

سمحت لي متابعتي ليوميات عائلة بدوي، سواء نهارًا بينما ينهمك الجميع في عمله أو مساءً بعد إغلاق الكاميرات، بالانتباه إلى مسألتين أثّرتا بشكل وثيق على صناعة الفيلم. أوّلاً المساحة الجغرافية - التي تعيش فيها العائلة - التي تؤدي دورًا أساسيًّا في خلق نمط عيش محدّد. كان لا بُدّ لي من أخذ هذه المساحة بعين الحسبان، مع معالجة مفهوم الحب الرومانسي الذي يعبرون عنه في هذه المساحة تحديدًا. يوجد علاقة دائمة بين الطبيعة المحيطة ونمط العيش وتطوّر المفاهيم، لهذا ولتقديم تصوّر حقيقي عن حياة هؤلاء الناس كان عليّ الالتفات الى المساحات التي يمارسون حياتهم فيها.

لهذا ركّزت على المشاهد الطويلة، التي يعدها دافيد ماكدوغال ضرورية لتحديد السياق الجغرافي الذي توجد ضمنه الشخصية محور الموضوع. ويُعدّد ماكدوغال ثلاث فوائد من استخدام المشاهد الطويلة: "إنها تكشف

عن العلاقات التي تربط المقدمة بالخلفية، وتؤكّد على التواجد الموضوعي للأجسام المادية المختلفة التي تظهر في اللقطة، وتوفر "منصة" لإبراز السلوك الإنساني الذي يكشف عن الهوية الفردية"[100].

أمّا المسألة الثانية فترتبط بالشخصيات الثلاث الرئيسية: صالح وعائشة ومريم. لاحظتُ سريعًا التفاعل الشخصي المعقد بينهم، وكذلك العلاقة المركّبة مع البيئة الاجتماعية المحيطة والمؤثرات الاقتصادية. إظهار هذه العلاقة بين الشخصيات الثلاث في الفيلم كان غاية في التعقيد، وكانت الطريقة الوحيدة لإظهارها وتمثيلها من خلال وضع سلوكهم في سياق محدد من أجل فهم الهوية الإنسانية الفردية. على سبيل المثال، كان لا بُدّ لي من عرض وجهة نظر عائشة في علاقة زوجها صالح مع زوجته مريم. تطلّب الأمر منّي إجراء المزيد من التحقيق والبحث في العلاقة بين عائشة ومريم، وهنا أيضًا لجأت إلى اللقطات الطويلة. حيث شكّلت وسيلة لإظهار أبعاد الشخصيات، مثل التقاط مشاهد مطوّلة لتناول العشاء مع كل ما تحمل من تفاصيل ومواقف تُبرز التوتر.

بلغ طول اللقطات التي صوّرتها ثماني ساعات. ومن أجل تنظيمها وتسهيل التعامل معها، أعددت سجل تصوير لجميع اللقطات في محاولة لخلق مقطع أولي للمشروع. لم أحاول قصّ أو إخفاء حضوري في هذه اللقطات، أبقيت على صوتي وأنا أطرح الأسئلة أو أعقّب على كلام من حاورتهم. هدفي الأساسي تركّز على إظهار الحميميّة بيني وبين الأشخاص الذين يظهرون في الفيلم. ما كنتُ أرغب في قوله من خلال هذه الخطوة هو أنّي لم أكن مجرد مراقبة، بل مشاركة.

---

[100] MacDougall, David. 1992. The Visual Anthropology of Film and Video. University of California Press.

على مستوى التحرير وتنظيم اللقطات، سعيت لإبراز حيوية ما بين الشخصيات الثلاثة في الفيلم. اخترتُ ترتيبها بشكل تتطوّر فيه كل شخصية من خلال وجهة نظر شخصية أخرى. لم تكن لتكتمل الصورة من خلال وجهة نظر أحاديّة/ذاتية. جعلتُ اللقطات الطويلة تتكلّم وتصف تلك الديناميكية الموجودة بين الشخصيات. في المشاهد الأولى، أظهرت الشخصيات الثلاثة وهم يتناولون طعام الفطور، لأنتقل بعدها إلى مشهد يجمع مريم وعائشة في غرفتهما ويدور بينهما حديث. ندرك من خلال هذه اللقطة الأخيرة، وضعيّة كل شخصية؛ الزوجة الأولى عائشة، والزوجة الثانية مريم. نكتشف في هذه اللقطة أن مريم تفكّر في الانسحاب من هذا الزواج. حاولت من خلال مشهد حديثهما إظهار التعقيدات في علاقتهما، خليط من الحب والغيظ والانغماس في الحياة الخاصة. في أحد مشاهد الفيلم الرئيسية، وبينما يتناول الثلاثة الطعام، تتوجّه عائشة إلى مريم وصالح بالتعليق والنقد لعلاقتهما. وفي نفس اللقطة، تحاول التقليل من دور مريم في الأعمال المنزلية عبر التعليق على الطعام الذي أعدّته. في المشهد الذي يلي، نرى عائشة في علاقة مختلفة مع مريم. عائشة تساعد مريم في تثبيت رباط ظهرها لعلاج التواء فيه.

أذكر هذه التفاصيل للقول بأن اختيار المشاهد وكيفية ترتيبها لا يأتي من عبث. بل يجب أن يكون في إطار سياق واضح ومحدد، يخدم الفكرة ويسهّل عملية ايصالها إلى المشاهد بكل ما قد تحمله من تعقيدات. حاولت من خلال هذه التكتيكات أن أصنع ما يصفه وولتر بينجامين بـ "الصورة الجدلية" للعلاقة بين المشاركين من خلال استخدام اللقطات الطويلة، وكما يبين ماك دوغال إن هذا "تأطير داخلي من نوع خاص يتأهل فيه أحد عناصر المقدمة من خلال عنصر آخر."

حاولت أن أوفر مساحة للمشاركين ليكشفوا عن هوياتهم الفردية، وأنا أعتقد أن مشاركتهم بالفيلم كانت ذات أهمية بالغة لأن الفيلم مبني على ترجمتهم للحياة، كما أن نمط حياتهم أثر إلى حد كبير على قراراتي المتعلقة بالنواحي الجمالية خلال عملية صناعة الفيلم وتحريره.

من إصدارات معهد الجزيرة للإعلام

وحدنا غطّينا الحرب: شهادات صحفية من الضفة الغربية وقطاع غزّة (2024)

أدوات كتابة القصة (2024)

شيرين أبو عاقلة: سيرة صحفية (2023)

الجامع في أخلاقيات الصحافة (2023)

كيف تحكي القصة في التلفزيون (2022)

كتاب السرد في الصحافة (2021)

كتاب السرد في الصحافة (2021)

كتاب 100 صورة 100 قصة (2020)

كتاب صحافة الصبيان 2018

يمكن الاطلاع على كافّة إصدارات معهد الجزيرة للإعلام عبر موقعنا الإلكتروني:
https://institute.aljazeera.net/ar/publications

معهد
الجزيرة للإعلام

AJMInstitute

+974 44897666
institute@aljazeera.net
http://institute.aljazeera.net/ar